حتى المشيب

اسم الرواية: حتى المشيب

اسم المؤلف:مجدي محسن أحمد

تدقيق لغوي:دعاء فرج

تصميم الغلاف محمد دربالة

تنسيق داخلي: أسماء عطا

رقم الإيداع: ٢٠٢١/٢٤٥٦

الترقيم الدولي: ٩٧٨٩٧٧٨٤٤١٩٢٥

جميع الحقوق محفوظة للناشر

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمساءلة القانونية والآراء والمادة الواردة .وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير

إبهار
للنشر والتوزيع

E.mail:EBHARPUPLISHING@GMAIL.COM

MOBILE: 01060267401

مجدي محسن أحمد

حتى المشيب

رواية

المرأة كوكب يستنير به الرجل، ومن غيرها يبيت الرجل في الظلام.

"شكسبير"

مقدمة

عزيزي القارئ، رواية "حتى الشيب" هي قصة سردها الكاتب من وحي خياله إلا أن بعض الأحداث الواردة بها حقيقية حدثت بالفعل، لكن دعنا نقول أنها بأكملها تتكرر في حياتنا كل يوم، وتقف في منتصف الطريق بين نوعين من الناس، من المحتمل أن تكون أنت أحدهما، لكني متيقن أنك بعدما تقرأها ستختار أي الطريقين تسلك، فقط كل ما عليك هو أن تطلق العنان لخيالك ليصل إليك ما أعنيه في تلك الرواية التي صممتها خصيصاً لك . . .

الإهداء الأول

إلى من فقد عزيزاً عليه دون
أسباب تمهد لرحيله، أنا أنضم إليكُ
بقلمي.

الإهداء الثاني

إلى أبي العزيز، مر على غيابك الكثير والكثير، رحم الله جسدك الذي امتلأ طهراً وغاب عن الدنيا.

الإهداء الثالث

إلى من هم أغلى من نفسي
التي بين جوانحي، وأحب إليَّ
من روحي التي تسري في
جسدي، أمي وأخي، لولاكم ما
كنتَ أنا.

وإلى كل أفراد عائلتي وأصدقائي
المقربين، أدام الله بيننا الود والحب.

١

الأحد ٢ مايو ١٩٦٥ م باريس، حي ريكلاندو

الساعة العاشرة مساءً . .

في مقدمة فناء منزل واسع تتزاحم به الأشجار والزهور في ائتلاف وتلاحم يوحي بالبهجة والنضارة المميزة رغم الظلام الحالك الذي يعم الأرجاء، يهبط رجل نحيل قصير القامة مرتدياً قبعة تعلو شعره الأبيض الكثيف الذي يتمرد للخروج من جوانب القبعة لترى في عينيه البنيتين اللتين حفتهما التجاعيد والهالات المتدرجة على وجهه المنهك الشاحب لوحاتٍ من التعب والجهد المتراكم وكأنه ينخرط في عمل شاق يتسبب في إجهاده، أم يبدو كذلك لأنه في شيخوخته؟!، من عربته السوداء التي يتقدمها فرس أبيض ضخم يتريث في حركته ويقف، لا يود التقدم مرة أخرى كما لو يود المرء المكوث في مكانه والتصلب وعدم الاكتراث لِما يحدث، فقط لأن رحلته شاقة يصعب استئنافها، يمشي ذلك العجوز في الطرقة مرتدياً معطفه الطويل الذي يعلو حذاءه بقليل، وبين ذراعيه صندوق كبير ومن فوقه عصا، يستمر في التقدم نحو الباب في نهاية الطرقة لتضفي عن منزل تنبعث منه أنوار خافتة كما لو أن الجميع يستغرقون في نومهم العميق؛ فلا مجال للضوء سوى تلك الإنارة أعلى الباب والتي قاربت نيرانها على

الخمول والانطفاء، حتى بلغ الباب واحتضنته يداه بركلتين تدعوان أن يجيب أحد عليهما دون اللجوء إلى الضربة الثالثة، فلا طاقة لرفع اليد مرة أخرى ولا حتى لإطلاق صيحات نداء، حتى يشق ذلك الهدوء صوت صبي في غضب ينم عن تذمر مستور:

ـ من الطارق؟

ـ آرون، قد أتيت قبل الموعد بساعة.

يفتح الباب بعدما فقد سبيله في الاستمتاع بوقته بين ألعابه وقد علم في قرارة نفسه بأنها ليلة حافلة بالصخب والزحام ولكن ليس الزحام فقط أن يكون بين الناس، لكنه زحام تلك الأفكار وتلك المشاكل والأمنيات التي ستستنشق أنفاسها لتخرج من قبر الأظرف التي طالما تزاحمت وتكدست بالصندوق لتجد منبعاً للسلام، ظل واقفاً إلى جانب الباب ليَدَع آرون يمر حاملاً الصندوق، ثم أغلق الباب ونظراته لا تفارق ذلك الشيء الذي ينقله العجوز والذي كُتب عليه "ش أوليان ص١"، إلى أن تنهد وأردف:

ـ إنه ينتظرك في مكتبه، آرون.

ـ أجل، سأصعد وسأنتظرك لتأتي كي نعبث سوياً بتلك اللعبة التي طلب مني والدك أن أُحضرها معي.

نظر الفتى في اهتمام وحيرة مطلقة بدون تردد:

ـ أيّة لعبة إذن، آرون؟

تبسم العجوز بينما يصعد درجات السلم متجهاً للطابق الأعلى صائحاً:

ـ لا تتأخر، جوليانو!

كان ذلك لا يضع الصبي إلا في اضطراب، فهو يدرك أن وقت اللهو قد نفذ والآن باتت الأمور مختلفة.

يصعد العجوز ليصل لأول الطرقة في الطابق العلوي متثاقلاً ليصل إلى الغرفة المعنية في نهاية المسار عن يمينه ويجد بابها مغلقاً، فيضع الصندوق ويرفع يده المجهدة لترتطم بالباب معلنة عن وصوله، ويحمل الصندوق ويتقدم ويغلق الباب وراءه مخرجاً نفساً عميقاً يفوح بعسر يومه:

ـ طاب مساؤك سيدي، ها قد بدأت أيام عملنا، اليوم قمت بتفقد أول الصناديق وأتممت تفريغه وجلبه، فعلى ما يبدو أنه مليء بالأمور، لقد رأيت زحاماً لم أشاهده من قبل في ذلك المكان لأنها أول الأيام التي نجمع فيها الأوراق من صناديق المدينة الموزعة بالشوارع، وليكن الرب في العون على استكمال باقي الصناديق، هذا من شارع "أوليان"، أول الشوارع التي نبدأ بها كل عام.

ينصت إليه بينما هو جالس على كرسيه مستديراً به، مستغرقاً في النظر إلى تلك اللوحة من خلفه، وكأن العجوز يحاكي الكرسي فقط، ثم يستمر آرون في الحديث:

ـ سآتي في الغد بالصندوق الثاني، وقبلها سأمر لكي آخذ الردود على تلك المطالب كي أودعها مكانها، أتمنى لك وقتاً طيباً سيدي.

يصمت العجوز في انتظار الإجابة على حديثه، ويفتح أقفال الصندوق على الطاولة بجواره، أصدر زفيراً عالياً واستدار بمقعده الذي طالما يلازمه في ذلك الوقت من كل عام أكثر منه في أي وقت، ينظر إلى العجوز بعدما عدَّل من جلسته وأسقط قبعته وترك النظارة على المكتب من أمامه ماسحاً بيديه على وجهه الأبيض الفرنسي الذي يحتضن عينين من الخضر، تدنوهما هالات سوداء من شدة الأرق وثقل التفكير ولكن هيهات، أي تفكير سيكون أعظم من هذه الليلة التي سيشيب لها شعره البني الكثيف ولن تكون الأخيرة، رفع كاحله بعدما نظم سترته وقال:

ـ ريكلاندو!، يا لهم من أناس عجيبين آرون، يستغرقون من وقتهم ويبذلون مجهوداً لأجل سرد مشاكلهم على الأوراق وتسليمها في أظرف بداخل صناديق، منتظرين أن يجيبهم أحد عليها باعثاً لهم الحل، ومتأهبين لتدخله في فضها بينما لم يدفعهم عقلهم ذات مرة إلى التفكير في إيجاد إجابة أو حل لها، هكذا اعتادوا وكذلك تعوَّدنا، ولكن تعلم؟، لا أستطيع التوقف عن فعل ذلك لأنه آخر ما وصَّاني أبي به قبل رحيله، ريكلاندو!، كم أتشوق لأرى أهلك يعتمدون على أنفسهم، أرى أني بدأت في التمرد آرون.

ضحك آرون مصوباً عينيه للصندوق وأردف:

ـ سيد رامون، أنت رهن تلك المسئولية منذ صباك وهكذا كان أبوك وأيضاً سيصبح الفتى، أنتم عائلة قدست حياتها للعمل على خدمة باريس

وعلى إسعاد أهلها، ولعل هناك مكافأة عظمى قد أعدها الرب لكم جزاء فعلكم، فقد جعلتمونا نحيا في سكينة وارتياح، جميعنا نقدّر ذلك، المدينة بأكملها كما تعلم.

ـ أجل، وسنظل كذلك، شكراً لك آرون، فأنت جزء من هذا العمل الصالح.

ثم وقف مشيراً للصندوق:

ـ والآن أحضره أمامي، فرحلته ستبدأ الليلة، وعُد غداً في تمام السابعة لتأخذه إلى مكانه.

هز آرون رأسه بالموافقة ثم استدار وأغلق الباب من وراءه ورحل، ومن ثم جلس رامون في مواجهة ذلك الصندوق بين أربعة جدران، فكان شغفه هو المسيطر ليرى ماذا حلَّ على المدينة هذا العام، وما مرادهم بعدما حُلَّت مشاكلهم في العام الماضي، لكن الوقت لم يحن، فجوليانو على أعتاب الدخول بعدما علا صوت خطواته وهي تقترب حتى دخل الغرفة وأغلق الباب قاصداً الجلوس على ذلك المقعد أمام أبيه:

ـ لقد رحل آرون، ماذا إذن؟، لماذا تفعل ذلك؟، أتذْكُر في العام الماضي حينما انتهيت من تلك الصناديق؟، بعدها جاءت تلك المرأة العجوز لتلقي إليك حديثاً وهي تبكي، لم أتمكن من فهمها ولكني بتُّ الآن أعي ما تفعله بتلك الأوراق، لماذا نحن؟!

نظر رامون بتأمل إلى وجه ابنه الذي لم يتجاوز السابعة ويسترجع في قرارة نفسه أن الأيام تدور، وتلك الدائرة تمر من أمامه ثانيةً، وتذكر ما حدث بينه وبين أبيه بينما كان في الثانية عشر من عمره حينما كان هو من يوجه تلك الأسئلة، كأن الزمان شخص ممل اعتاد الظهور بنفس القناع في كل آن، ولا يعترف بالتغيير، فهو ليس كما يتصوره البعض ويفترضون أنه يمر علينا سريعاً، في حقيقة الأمر هو بطيء للغاية، لكن نحن من نتصرف بغرابة، فما فعلته بالأمس بالكاد هو ما فعلته اليوم وستفعله غداً لكن باختلاف القناع، كلما وصل بنا لنهاية الطرق يسلكها مجدداً من البداية بنفس الشكل، لكن هذه المرة بنسخ أخرى منا، ماذا لو أن ما تفعله الآن تشعر وكأنك فعلته سابقاً في وقت ما لا تتذكره ولا تعي أيّة تفاصيل عنه سوى تلك المصادفة بينهما؟، لا تتمكن من توقع القادم، ولكن بعدما تلتقيه تشعر وأنك قد صادفته يوماً ما في الماضي وتصير كعقرب الساعة يمر على نفس الأماكن بنفس الصورة دون أن يدرك بأن خلفه أزمنة تنقضي، تباً!، لكنها حياته.

في الواقع إن ما يحدث في حياتنا مجرد أضحوكة، ماذا لو لم نولد؟، هل كنت ستشعر بأي شيء الآن؟، كيف كان العالم قبل مولدك بعام؟، باتت تلك الأسئلة في باله بينما لم يرد على جوليانو، لكن الفتى أدرك أن أباه غرق في بحر ماضيه وخياله حتى قاطعهم ذلك الصوت يطلب الدخول للغرفة، فأشار الفتى على الباب:

ـ جاءت أمي

دخلت عليهم الغرفة امرأة طويلة القامة كثيفة الشعر، عيونها الزرقاء الوهاجة تبعث شعاعاً من أنوار الشمس اللامعة عند مطلعها، فكانت ملامحها الفرنسية هي أبسط بيان على جمال طلتها وروعة إشراقها، كانت تُدعى "بيرلا" بمعنى اللؤلؤة، وأعتقد أنه الاسم الصائب لوصفها.
نظرت إليهم مبتسمة:

ـ ها قد بدأت أيام العمل الشاقة، نحن على أعتاب أوراق لا حصر لها وتعثرات عديدة، لن أستطيع البقاء والمكوث هنا لأيام عديدة بجانب كل تلك الأوراق، أتمنى أن تحظى بنهاية سعيدة لك ولأصحابها.

ـ أجل، ستكون رحلة وعرة، بل أشدهم على الإطلاق، فقد حدثني آرون أن سكان المدينة صاغوا زحاماً لا مثيل له بجانب الصناديق، كلٌ يسارع بإبداء مشكلته، والآن هم في انتظار الرد، ألا تزالين عازمة على الرحيل؟
هزت رأسها بالموافقة:

- اممم، أجل

ـ لكِ ما شئت، ولكن أنا لا أطمئن لذلك الوغد الذي تعملين معه بالجريدة، وكيف له أن يذهب معك إلى "ماتروغيت"؟!، ستكون رحلة عمل ساذجة حقاً، هذا الرجل لا يحمل لي سوى الضغينة والحقد.

تنهدت ثم تابعت:

ـ رامون أرجوك، أنت تعلم أنني أنتظر تلك البعثة منذ سنوات، وقد تم اختياري للعمل لصالح فرع الجريدة هناك، فقط لعشرين يوماً، لا تحمّلني مزيداً من الأعباء عند رحيلي، أريد أن أخرج دون أيّة خلافات أخرى كي أحظى بوقت جيد خالية البال لأتمكن من إتمام عملي على الوجه الذي يرضيهم.

ـ يرضي مَن؟!، أنا من وضع أمر تلك البعثة لجعل كل العاملين لديَّ في الجريدة على نسق واحد، لن أناقشك مرة أخرى في ذلك الأمر، لكِ ما شئتِ بيرلا.

كانت تلك الكلمات لا تُزيد رامون إلا انزعاجاً وحسرة، فكيف لزوجته أن تتركه في تلك الأيام التي هو فيها في أمس الحاجة لمن يمكث بجانبه ويأخذ بيده ويفكر معه بصوته ليكون رفيق جولته مع الصناديق، مستشاره الذي يأخذ برأيه وأفكاره، هل سيتحتم عليه مواجهة كل تلك المشاكل وحده؟، ومن ثم العثور على إجابة لكل الأسئلة التي تتهافت أمامه، لكنه كان يعود أدراجه؛ فلم تكن المرة الأولى التي تفعل فيها بيرلا هكذا معه ولن تكون المرة الأخيرة التي تتركه فيها وحيداً بين جوانب غرفته في مواجهة الدنيا بأسرها رغم علمه بأنه هو المخطئ، المذنب في كل شيء، لطالما حاولت التقرب منه، جاهدت لأن تمسك بيديه لتنتشله من بين ذلك الظلام الذي يخيم على حياته، كان بحاجة للخروج من وقع الآلام، من بين معاناة الناس ومشاكلهم، فكيف له أن يستمر في حل

المنازعات وفض الخلافات بين الناس دون السيطرة على حياته؟!، كيف لا يتمكن من السيطرة على مشاعره وآلامه؟!، كانت زوجته وابنه هما ضحيتا تلك المنازعات، كلما قرأ عن مشاكل الناس وهمومهم وجاهد في إخراجهم منها والتخفيف عنهم يأتي عند الشيء الأكثر أهمية على الإطلاق، ذلك البيت الذي يأويه وأسرته، لطالما نفَّسَ عن آلامه وأشجانه عليهم بالسلب لا بالإيجاب، فتطبعت حياته على الاختلاج والاضطراب، وتولدت فجوة بينه وبين زوجته، كيف تعيد بناء وترميم بيوت الآخرين وأنت تقف على أنقاض بيتك عاجزاً عن لملمتها.

٢

جلس مطرقاً يطيل النظر إلى ابنه تارة وإلى الصندوق تارة أخرى، متأملاً أيام حياته الخوالي وكيف صارت حياته منذ زواجه ومن ثم بعدما أنجب طفله، وأيضاً تركه للعمل بالجريدة مع زوجته وتفرغه لإتمام أعماله ونشر المساواة والتكافؤ بين الناس في باريس، مستحضراً ذكريات طفولته التي بالتأكيد تنعكس له في صورة ابنه جوليانو، تذكر كيف بدأت رحلته مع هذه الصناديق وكيف سار على نهج أبيه كما وصاه، وحتماً تأثير تلك الأعباء والمسؤوليات على بيته وأسرته، يسترجع رحلة لقائه بزوجته بيرلا في العمل لدى جريدة ميلساندي التي أسسها جده، ومرت الأيام وتعددت بعثات العمل بينهما إلى أن وقع في حبها وتقاربت أفكارهما فأحسا بأنهما مزيجٌ ومن الخطل فصلهما، وتزوجا ومن ثم أنجبا جوليانو الذي أدخل السرور على قلبيهما وأضاء بعض العتمة التي كانت تسود حياتهما، حيث كانا قبل زواجهما يعيش كل منهما بمفرده دون أسرة، رامون ماتت أمه منذ ولادته، أما أبوه فقد توفي قبل أن يبلغ رشده، وكذلك بيرلا وإن اختلفا، فهي فقدت كليهما منذ صباها في حادث أو ما شابه.

فأخذ لجام خيله متجولاً بين ذكريات الماضي ودواخله حتى أفاقه صوت جوليانو:

ـ أبي، لقد حانت الثانية عشر.

أخذ نفساً عميقاً متأهباً لليلة طويلة، ليلة تنتعش لها خلايا عقله وتتحرى كل قدراتها في استخلاص الحلول والإجابات، فبدأ بجلب الصندوق الأسود على مكتبه ثم فتحه وأخرج العديد من الأظرف التي تكدست بجانب بعضها البعض، يحمل كل منها شكواه ومعضلته التي ترجو سرعة الإجابة والإنقاذ، فبدأ بتوزيع تلك الأظرف أمامه كي يتناول واحداً تلو الآخر، يفتحه ويقرأ ما كُتب فيه ومن ثم يرفقه بورقة أخرى يكتب فيها رده وأوامره ويغلقه ويعيده إلى الصندوق ثانية.

-لماذا نحن يا أبي؟

أطلق جوليانو هذه الكلمات على أبيه لتقع على مسمعه وتتخلل ثنايا الماضي لتعيده إلى ذكريات أبيه وكيف بدأت تلك الرحلة، فترك ما بيده من أوراق ونظر إلى جوليانو:

ـ سأخبرك بذلك الطريق الذي سلكته منذ وفاة أبي، فقد كانت رحلته مع الحياة عظيمة حقاً.

وأحضر الصندوق أمام جوليانو وأردف:

ـ عندما كنت في سن صغير توفت أمي، ولازمت أبي بقية حياته، وكان قد تَسَلَّم جريدة ميلساندي التي أسسها أبوه، فكانت مقالاته تُكتَب أسبوعياً، تفرغ للفقراء وتطرق لحل أزماتهم بكل ما لديه من قوة وجهد، كانت مساعدة الناس هي غايته الأولى، فوهب نفسه للعمل من أجل خدمة المدينة بأسرها حتى جاء اليوم الذي قرر فيه أن يصغي لمشكلاتهم ويتفرغ

لحلها بشكل رسمي، فأسس عملاً خالصاً يقوم على مناقشة أمورهم وتعثراتهم، ومنحته السلطة كافة الصلاحيات لإصدار الأوامر والقرارات بشأن القضاء على أزمات الناس وهمومهم التي يمرون بها، لأنهم يعلمون أن ذلك سيفيد في تقدم ورفعة المدينة خاصةً بعدما فقدت الكثير من ثرواتها أثناء الحرب، فأنشأ مكتباً يستقبل فيه المظلمات والمشاكل بأسرها، فكان يفتح ذلك المكتب تسعة أيام في العام من أجل استقبال مشاكل العامة والتي يكتبونها في أوراق ويسلمونها له، فكلٌ يأتي بورقة يكتب فيها اسمه ومشكلته التي يصعب عليه حلها بنفسه، فتعددت ألوان المشكلات وأسبابها، فمنها ما هو مادي وما هو معنوي، فمثلاً هناك من لا يملك المال لأجل شراء شيء ما، ومن لديه أزمة مع أناس آخرين، ومن يريد أن يبدأ مشروعاً ليجلب له قوت يوم يعيش عليه هو وأسرته وغيرهم الكثير والكثير، فكانت الناس تتزاحم كل عام في مكتبه من أجل تسليم تلك الأوراق، كان يأخذها ويقوم بفحصها وقراءتها واحدة تلو الأخرى ثم يرفق مع كُلٍّ ورقةً ثانية بها الإجابة على تلك المشكلة إذا كانت في نطاق قدرته، ويقوم بتسجيل المظلمة وصاحبها لديه ومن ثم يوصلها للجهات المعنية بحلها، وبعد انتهاء الأيام التسعة كانت تُعلَّق لوحة في وسط ميدان المدينة، بها الأسماء والقرارات التي اتخذتها السلطات من أجلهم، فأحس الناس شيئاً من الاطمئنان والراحة، فكانوا يطلقون عليها أيام الرخاء،

واعتاد الناس على الاحتفال بعد حل مشكلاتهم، وباتت باريس بأحيائها بلدة مثالية، تتعاون طبقات شعبها من أجل تحقيق التكافؤ بينهم.

يدير وجهه لينظر إلى ابنه فيجده منصتاً يسمع بآذان صاغية كأنها أقصوصة قبل النوم، يبدو على وجهه علامات التطلع لمعرفة المزيد، فيعتدل رامون بوجهه مستكملاً حديثه:

ـ ومن ثم مات أبي وقد أوصاني باستكمال تلك المهمة من أجل المدينة، فسرت على نهجه، عينت مزيداً من الكتَّاب بالجريدة، وبمرور الوقت تعرفت على بيرلا وتزوجنا، وبعد سنوات من عملي في الجريدة تركت وظيفتي ككاتب، بينما استمرت بيرلا في عملها وتطرقت أنا إلى إدارة الجريدة فقط وأيضاً استكمال مسيرة أبي، حتى تطورت الوسيلة منذ عشر سنوات، فقمنا بوضع تسعة صناديق بتسعة شوارع رئيسية في أحياء المدينة، في كل شارع صندوق، وفي مثل هذه الأيام من كل عام يذهب الناس لوضع مشكلاتهم في أظرف بالصناديق، فيقوم آرون بتفريغ الصناديق في كل يوم واحداً تلو الآخر، ويُحضر الأوراق إلى هنا، وأمكث كالعادة أقرأ وأفحص وأكتب الحلول وأرفق الظرف إلى الصندوق مرة أخرى ويحمله آرون في اليوم الثاني إلى نفس المكان، وجرت الأمور على ذلك النحو من كل عام، لكني لا أريدك أن تفعل هكذا مثلما فعلت أنا وجدك لأنك سـ....

يدير وجهه ليرى جوليانو مستغرقاً في نومه وكأنه يحكي له قصة ما قبل النوم، فتبسَّم وقام وحمله إلى فراشه، ثم قبَّله وأغلق الأنوار، وعاد إلى مكتبه ليجلس بين الأوراق.

وضع الصندوق فارغاً إلى جواره كي يعيد كل ظرف بعد تفقده إلى الصندوق مرة أخرى، وأشعل ذلك المصباح الذي بجانبه كي يُزيد من تركيز الضوء أمام مرأى عينيه وهو في أُهبة الاستعداد لفتح أول الأوراق والنظر إلى ما فيها، وبالكاد لم تتغير حياة الناس كلياً، فلا زالت تلك هي مشاكلهم، إما المال أو الإجرام والتعدي والتجاوز غير المقبول وغيرها من التعرض للظلم والإهانات وبعض الأمنيات الساذجة، إلى أن خمد شغفه، فكان يتطلع إلى أشياء جديدة قد تعكر صفو الناس، إلا أنه لم يجد سوى تلك التعثرات المماثلة في كل عام، وكأن عقارب الساعة تدور إلى الخلف، يلازمنا الماضي بكل تفاصيله وألوانه.

ظل يقلب في الأوراق واحدة تلو الأخرى، وفي نفسه يتطلع إلى أمور جديدة، لا يعني ذلك بأنه يتجاهل هموم الناس وتعرقلاتهم، لكنه فقط يطمح في إيجاد شيء جديد يطرأ عليهم ويذهب براحتهم، فلم يجد سوى تلك الأشياء المتكررة التي طالما عانى منها الناس وتطبعوا عليها، فظلت تلازم كل جيل.

شرع في كتابة الأوامر والقرارات بخصوص كل ورقة وكل فرد من أهل المدينة، وظل هكذا لساعات غارقاً في تفكيره مسخراً عقله ويده كآلة تنثر

الحبر على ورق مختوم، وهكذا حتى انتابه الخمول والملل وفي خاطره يكرر "لن أستطيع بكل ما أفعله أن أغيّر طباع الناس وسبل إدارتهم للمعيشة، لا بد أن يغيروا أنفسهم بأنفسهم، لكنه داء التعود، اعتدنا على تعطيل العقول، على الفتور والتواكل، حاذقين في التعبير عما يؤرقنا، متراخين في إيجاد الحلول، نتهاون في حق عقولنا، نجيد اللهو، ونتمكن من الثرثرة، أهدرنا الإبداع وغفلنا عن التميُّز حتى أصبح مستقبلنا مرآة لماضينا، لم نخطُ خطوة لتغيير الحاضر بينهم".

ظل هكذا لساعات حتى بدا أمامه شيء واحد دعاه إلى الصمت فجأة فاسترق نظره للحظات، احتار فكره وكانت دهشته هي السائدة؛ من بين تلك الأظرف بيضاء اللون وجد ظرفاً لونه أسود، فكان لا يعي شعوره في هذا الآن، توسطت نظرته بين السخرية والغموض، وما هي إلا ثوانٍ حتى التقط الظرف وفتحه وبدأ في قراءة ما كُتب في تلك الورقة المقبورة فيه، فوجدها مكتوبة بخط تشوبه التعرجات، يتبلل بنقاط متفرقة من الماء على أجزائه مما يتطلب تركيز النظر لاستيعاب الكلمات:

" عزيزتي، سُرِقَ مني عمري بينما أنتظركِ، فاتني ريعان شبابي، سُكِّرَت أبواب الحياة في وجهي، الآن أعيش بلا روحي التي طالما رافقتني في حضورك، فأنا هشٌ بلاكِ، فتت الألم رأسى فأخفى بريق عيني، إلى متى سيطول غيابك عني!؟، وصفني الناس بالأحمق، هل حقاً أنا أحمق؟!، كانت ليلة مريعة حين رحلتِ، ظللت أنتظرك طوال الليل إلى أن أتى اليوم

الثاني فالثالث ثم الرابع حتى مرت الشهور وتعددت السنون، ولا زلتِ تحجبين شعاع شمسك عني، سئمت الانتظار، مللت الوحدة، أرهقني ما لا أستطيع الإفصاح عنه، خسارتي لا تعني لكِ عدم قدرتي على الحفاظ عليكِ، فلم أطرق الأبواب ليعانقني أحدهم أو حتى ليمسح دموعي، ناضلت لأجلك، خطوت إلى كل البلاد باحثاً عنكِ لكني لم أجدك، نال مني التظاهر أقصاه، عزمت على تجاوزك، لكن حتى وإن غمرتني الرغبة كانت تنقصني القدرة، تخدرت من كثرة الألم، لا أرغب في إنهاء عمري محاولاً تجاوزكِ وتخطيكِ، أريد أن أحظى بتلك اللحظة التي سأحدث نفسي فيها بأنه أخيراً قد انتهى كل شيء، قد عادت الحياة إلى طبيعتها وأشرقت شمس يومي فأضاء القمر عتمة ليلي.

حبيبتي، لقد شرَّدتنا الدنيا في صحرائها، ولا يعلم طريق العودة إلا أنتِ، أنتظركِ "

٣

تلقى تلك الكلمات بوقع هادئ؛ عزله عن بقية ما قرأ تماماً، أخذه في جولة عميقة من البداية إلى أن ارتطمت عيناه بكلمة "أنتظركِ"، فعلى الرغم من استفاقة مشاعره للحظات تأثراً بما قرأ إلا أنها لم تزده إلا سخرية ودهشة، فكيف لأحد أن يعبث برسالة عاطفية لا تحمل أي غرض أو حتى طلب؟!، إضافة إلى وجودها في ظرف أسود اللون جعلها محمل السذاجة والحمق، وأرغمت رامون على الغضب فظن أن أحدا يمازحه، والتقط الظرف وأسقطه من على المكتب، فلم يضع عليه رداً أو حتى يعيده إلى الصندوق؛ فلا وجود لأي اسم على الظرف أو حتى لكاتب الرسالة.

أكمل قراءة الأوراق كأن شيئاً لم يكن، متنقلاً بين الظرف والآخر مضيفاً رده وتعليقه على ما وجد من متطلبات قيد التنفيذ حتى اقتربت الخامسة والنصف صباحاً، وقد بلغ آخر الأوراق لديه وأتمها وأغلق الصندوق كما كان مرفقاً عليه "ش أ ص قيد التنفيذ"، وبعدها وضع الصندوق أمامه فأطاح بصورة كانت توضع على جانب المكتب، كانت له ولزوجته وهما يحملان جوليانو، التقطها ونظر فيها بتأمل وتعمق، تتجول به مشاعره في حياة أسرية متذكراً أمه وأباه وكيف انتهى بهما المطاف، وحملته أشجانه متأرجحة حتى أحس بأن النعاس سيغلبه فوضع الصورة عن يده وأطفأ نور المصباح، ونهض متوجهاً إلى غرفة ابنه فوجده مستغرقاً في نومه كأنه لم

يطأ النوم منذ أيام، فاقترب إلى سريره واستراح جانباً إليه وقبَّله ثم وضع رأسه الذي يزدحم بالأفكار على الفراش ليغط في النوم بعد أن أرهقه العمل.

****

قبل حلول السادسة والنصف مساءً . .

تعلو أصوات القرع على باب المنزل يتخللها صوت آرون:

ـ سيد رامون، سيد رامون!

ينهض عن الفراش لا يدري ما الوقت ولا يعي أي شيء من حوله، ولكن يشعر بأنه خلد في نوم عميق إثر السهر والأرق، فهب مسرعاً ليفتح الباب لآرون وقد بدت على وجهه علامات الإجهاد والتعب على الرغم من أنه استغرق عدداً كافياً من الساعات للنوم، ولكن أحياناً يكون النوم هو ملجأ للهروب من الآلام والمشاعر. بصوت يعتريه الكسل والخمول:

ـ كم الساعة آرون؟

ـ السادسة والنصف سيدي.

ـ هممم، ادخل

ثم صاح:

جوليانو، أين أنت!، جوليانو!

سمع صوته قادماً فصمت، أردف آرون:

ـ هل انتهيت من شارع أوليان سيدي؟

ـ اممممم، اصعد، فهو مجهَّز على المكتب.

صعد آرون ليحضر الصندوق كي يذهب به إلى مكانه في شارع أوليان ومن ثم يذهب إلى شارع الملكة رين لإحضار ثاني الصناديق من أجل المراجعة والقراءة.

ـ سأذهب سيدي وأحرص على أن أكون هنا قبل العاشرة، طاب مساؤكم.

ـ آرون؟

ـ أجل

ـ هل رأيت أحداً يضع ظرفاً أسودَ بداخل الصندوق بالأمس؟

: لا سيدي، لقد وصلت بعدما أتم الناس إيداع أوراقهم، لماذا؟

ـ لا عليك، اذهب أنت وعُد كما اتفقنا.

هز آرون رأسه بالموافقة مبتسماً ثم أخذ الباب في يده وخرج.

تذكر رامون ذلك الظرف الأسود للحظة متسائلاً إلامَ يشير هذا؟!، ولكن جوليانو باغته:

ـ ألن تصنع لي كعكة الفطور؟

تبسم إليه رامون وتمتم:

ـ أجل، كعكتين ولكن ليس للفطور.

وداعبه آخذاً بيده إلى صالة الطعام، فجلس جوليانو مقابل أبيه، ينظر إليه بينما يعد له كعكته ويجهز لنفسه كوباً من القهوة.

ـ لماذا لم نذهب مع أمي؟

تبسم رامون مداعباً طفله:

ـ عزيزي، بيرلا في رحلة عمل وستعود قريباً، لا عليك، ستكون سعيدة إذا انقضَّيْتَ على تلك الكعكة كلها.

ـ هل تحب أمي؟

ضحك رامون بصوت للحظات، ثم نظر إلى طفله الذي يستمر في طعنه بذلك النوع الدرامي من الأسئلة:

ـ هممم، أحبها وأحبك أيضاً.

ـ لقد سمعت الشجار الذي دار بينكما منذ يومين، هل أنا سبب ذلك؟

اقترب منه رامون ووضع يده على رأسه يحنو عليه قائلاً:

ـ بالطبع لا، لا عليك صغيري، فأنا وأمك نحبك كثيراً ونود أن نراك تضحك وتلهو طوال الوقت، لا تقلق، لطالما تشاجرنا ولكننا ما زلنا نحب بعضنا البعض، ما زلنا أسرة واحدة، بيرلا هي حب عمري وأتمنى أن نكون معاً إلى الأبد حتى نشيب، لن أجد مثلها قط، حتى وإن اختلفنا يوماً فسرعان ما نعود كأن شيئاً لم يكن، وحتماً حينما ترجع سنذهب سوياً لإحضار تلك القطة التي شاهدتها عند عمتك أبيلا، لقد تحدثت إليها

بالأمس وأوصيتها أن تقوم بتدريبها لأجلك، عمتك تشتاق لرؤيتك، لكن ماذا ستسميها؟

ـ بيرلا، سأسميها بيرلا.

ـ حسناً، هذا الاسم يليق بها أكثر من أي شيء آخر.

ـ أجل.

ثم أخذ جوليانو كعكته بعدما قبَّل أباه ليذهب إلى غرفته يلهو بين ألعابه.

جلس رامون لتناول قهوته صامتاً متأملاً زوجته بيرلا، خاصة بعدما سمع من جوليانو تلك الكلمات، فقد أيقن أن ابنه قد استنشق شيئاً مما يدور بينهما، وعرف أن ذلك سيؤثر على جوليانو بالسلب، فمشاكل الآباء دوماً تؤثر على تشكيل نفسية الأطفال لتتولد بداخلهم ألوان من الخوف والقلق والتعصب وغيرها مما يلازمهم طوال الحياة.

جلس يحتسي قهوته ويتناول كعكته حتى فرغ وهمَّ بالصعود ليمكث في مكتبه، واستدار بكرسيه وحمل تلك الصورة من جانبه لينظر فيها متأملاً، ينظر إلى ابنه وزوجته وكيف ينمو ابنه يوماً بعد يوم، يفكر في مستقبله، وهل سيكون مصيره مثل مصير أبيه، يقضي عمره لأجل راحة الناس وإسعادهم بينما يظل عاجزاً عن احتواء أسرته والحرص على راحتها وسعادتها، شعر بالألم وانتهى به المطاف لِما جنته الدنيا عليه، يفكر في بيرلا وكيف ازدادت الشجارات بينهما، حتى تذكر تلك الكلمات التي كُتبت في الظرف الأسود، ذلك الحب المحزن، تلك المشاعر الصارخة التي تبحث

عن أصحابها، أخذته أشجانه في بعثة، تلهو به بين تفرعاتها وتفاصيلها حتى مر به الوقت مستغرقاً في مكانه، وما هي إلا ساعات وأتى آرون بالصندوق الجديد الذي يحمل أفواجاً جديدة تحتضن آمالاً يعجز الناس عن تحقيقها، كأنه عصا سحرية بأيدي هؤلاء البشر، يستخدمونها من أجل تحقيق ما عجزوا عن إنجازه، لكنه وقع في فخ سحره؛ فكيف له ألا يكون قادراً حتى على انتشال نفسه من بين همومه وأتراحه التي تستحوذ على كل قلبه ولم تترك له بصيصاً من النور يحيا فيه بسلام مع نفسه.

قرع آرون جرس الباب وفتح له جوليانو، ثم صعد إلى رامون وكالعادة بادله السلام والتحية مبتسماً معبراً عن بهجته لِما رآه من الناس وتكدسهم أمام الصندوق، كلٌ يودع ما ساقته إليه نفسه، وبينما كان آرون مستغرقاً في الحديث كان رامون يترنح في وحي خياله غارقاً بين أفكاره، لا تستقبل آذانه أي صوت ولا تري عيناه سوى تلك الخيبات التي أوطأته فيها الدنيا وغمرته حتى حفته من كل ما يأتي ويجيء، كأنه في حالة من العزلة التامة عاجزاً عن فصل نفسه، لا يرغب في التفكير والتركيز، فكانت تقع الكلمات من على أذنيه دون أن تمسه حتى علا صوت آرون مردداً كلمات ردت رامون إلى واقع ما حوله كأنه يستفيق من غيبوبة، لكن أيّة غيبوبة يدخلها المرء وهو في كامل إدراكه ووعيه:

ـ سيدي، سيد رامون، أأنت بخير؟!

أفاقت أذناه وتحركت عيناه نحو آرون قائلاً:

ـ أجل، هل أفرغت الصندوق؟

فبادره مزيلاً الأقفال من على الصندوق، مخرجاً عدداً كبيراً من تلك المستطيلات البيضاء التي ملأها الناس بأوراقهم، أوراق تحمل ما ترجوه نفوسهم وتتمناه، ما تعجز عقولهم عن تنفيذه.

ظل ينظر إلى أيدي آرون وهو يوزع الأظرف من أمامه واحداً تلو الآخر ليسهل الأمر على سيده، وبالطبع فتحهم رامون وفحص ما بداخلهم، وما هي إلا ثوانٍ حتى حدث ما لم يتوقعه أحد، ما لم يخطر على باله أن يراه ثانيةً، ذلك الشيء الذي أربك وجدان مشاعره وأثار قلقه منذ أمس، فكانت رؤياه تثير الذهول على عينيه وكذلك آرون، فقد علم بذلك الشيء مسبقاً، فأخرجه آرون أمامه:

ـ ها قد عاد صاحبنا من جديد.

كيف يحدث هذا بحق السماء؟!، من يظن نفسه وغداً ليبعث إليَّ بذلك الشيء مجدداً؟!، هل رأيت أحداً يودع هذا الظرف؟

ـ قطعاً، لم أرَ هذا ولم أرَ أحداً يفعل ذلك، فلم أكن على قرب كافٍ من الصندوق لأرى ما يودعه الناس.

ثم أعطاه آرون ذلك الظرف الأسود ليكون سبباً في أرقه كل ليلة هكذا، ومن ثم التقطه وأخرج الورقة منه وفتحها ليقرأ أمام آرون.

٤

" سيريا، تربعتِ على عرش قلبي، أكتب إليكِ وقد تعددت كتاباتي، تخطت اللانهاية، لن أكف عن بث شكواي إليكِ كما اعتدت، لن أمتنع عن لقائك في حلمي، صرتِ سجينة قلبي، لماذا تركتموني وحيداً؟، أرى في المرآة كل يوم ذلك الجسد المُكبَّل بالأغلال، أغلال الماضي، سلاسل الحب والتعلق، جليساً على كرسيه بعدما أنهكه المرض وشاع في جسده حتى هَرِمَ، أصبحت عجوزاً يجول بقلبه في شبابه، أنفق حياته قرباناً لأجل الحب والصبابة لكن لم يُجْدِه ذلك، لم ينفعه، فلا زال وحيداً، لا يقبل أن يبسط يديه ليصافح الدنيا، لا عهد بينه وبينها إلا برجوعكم، فقد سلبتني أبسط ما أتمنى وأعز ما أملك، إن كان بإمكانكم نجدتي فإنكم تعلمون كيف تجدونني".

تنهد رامون بعد أن طوى الورقة وأودعها في الظرف وعلق نظرته إلى مكتبه صامتاً، لا يدري إلامَ تقوده هذه الكلمات، لِمَ تغوص بين حجرات قلبه؟!، ما الذي تنوي أن تنقذه من الغرق؟، أصابته بالأسى وما زال في حيرة، لا يعرف ما يعنيه كل ذلك، حتى علت عيناه ناظراً إلى آرون باسطاً ذراعيه متعجباً:

ـ ما هذا برأيك آرون؟

ـ سيدي، لا بد أن أحدهم بحاجة إلى مساعدتنا، ولا شك أيضاً في تورطه بشيء يضيق عليه حياته، ألم تُذكر أيّة معلومات في الورقة تدعو إلى ملاحقة صاحبها؟

هز رامون رأسه بالرفض، فلا وجود لأي اسم أو عنوان يتتبعونه، ليس هناك خيط واحد يتدبرونه من أجل حل ذلك اللغز، حتى وقف رامون فجأة وقال:

ـ قد وصلتني رسالة من ذلك الشخص بالأمس وها هي رسالة اليوم، من المحتمل أن يراسلنا غداً، انظر آرون، كل ما عليك فعله هو بعد أن تضع الصندوق ليترك الناس مشاكلهم لا ترحل بل ابقَ بجانبه ومد بصرك لترى ما يودعه الآخرون، فإن رأيت أحداً يلقي بظرف أسود فهو مفتاح لغزنا، لكن لا تدعه يلاحظك، ابقَ متوارياً ولا تلفت أنظاره، تتبعه واعثر على مكانه ومسكنه وما يفعل وأخبرني ما رأيت.

ـ عُلم سيد رامون، لكن لِمَ لا أحضره إلى هنا؟

ـ لنعرف أنها ليست وقيعة مدبرة من أحدهم ليفسد علينا أيامنا ويشتت تركيزنا.

أدرك رامون في قرارة نفسه أن الغد لا مفر منه، لا حيرة بعد الليلة، ولا مزيد من أرق المشاعر وضغينتها، وبينما يتحدثان علا صوت جرس الهاتف فخمن رامون أن أحدهم سيحدثه بخصوص الظرف الأسود، ثم

نظر إلى آرون في صمت وجيز ملتقطاً سماعة الهاتف على جانبه حتى دنت من أذنه، ورد في اهتمام:

ـ مرحباً

حتى قاطعته مجيبة:

ـ بيرلا

تمتم مخرجاً نفساً عميقاً:

ـ بيرلا، كيف أحوالك؟

ثم أشار إليه بما اتفقا عليه، وبادله آرون بأنه سيأتي غداً كي يأخذ الصندوق في وقته ثم حياه وذهب.

ـ عزيزي أنا بخير، كيف الأحوال؟، كيف هو جوليانو؟

ـ كلنا بخير ما دمتِ أنتِ كذلك، في انتظار عودتك إلينا عما قريب، جوليانو يفتقدك كما أفتقدك أكثر.

ـ وأنا أيضاً

ـ كيف العمل إذن؟

ـ مقلق حد الموت، بالأمس نشرت مقالاً لك ولكن تحت اسمي، عن علاقة طبقات المدينة ببعضهم وتوزيع الثروات وتقسيمها في وجود الفروق الشاسعة بينهم، وكيف يزدري الأغنياء الأقل منهم، وألقيت بعض الحمل على مجموعة من الرجال الأغنياء المستفحلين في المدينة

والذين كثرت مواقفهم البشعة تجاه العامة، واحتكارهم لكثير من الأشياء واستغلالها، مطالبة بتوزيع عادل للحقوق كما نفعل في مدينتنا.

ثم ضحكت مستمرة في حديثها:

ـ حتى فوجئت اليوم بتهديدي بالقتل إن كتبت مثل تلك الأشياء مرة أخرى.

صمت للحظة يستوعب ما قالت مقلباً بصره:

ـ أأنتِ جادة؟!، لماذا فعلتِ هذا الأمر؟!، كيف تنشرين ذلك المقال؟!

ـ بالطبع نشرته وكان محور الحديث في المدينة، أسعد الأغلبية وأزعج البعض، ولكني لم أتوقع أن يُهاجَم بهذا الشكل حتى يصل للتهديد والقتل.

علا صوته:

ـ هل تعبثين؟!، ماذا إن اغتالكِ أحدهم؟!، تعلمين خطورة التحدث في مثل هذه الأشياء!، أرجوكِ أرجوكِ، لا تكرريها ثانيةً.

أجابته بصوت هادئ حزين:

ـ آسفة، فلم أكن أعلم نواياهم، ولكن اطمئن لن يحدث ذلك مجدداً حتى أعود سالمة إليكم.

بعدما استنشق خطورة الأمر وعواقبه، وغمره القلق للحظات بينما كان يستعجب من نفسه، منذ متى وقد ازداد خوفاً عليها؟!، يتذكر أن قلبه لم

يشعر بمثل هذا منذ سنوات عدة، فجأة استيقظت أحاسيس قلبه المدفونة في قبورها بعدما غمرتها الأرض بترابها فصارت منهكة عابثة، فأردف:

ـ أرجوكِ ثانيةً، أنت لا تعلمين مَن هؤلاء مثلما أعلم، لا تدركين كيف هي طباعهم السفيهة، نحن بحاجه إليكِ، وفي انتظار رجوعك لنحظى بأوقاتنا الهادئة السالمة كما كنا.

ـ لا تقلق بشأن ذلك، سأفعل، أين جوليانو؟، هل أحدثه؟

ـ كان ينتظر مكالمتك طوال اليوم لكنه نائم الآن.

ـ لا بأس، فلا داعٍ أن توقظه، سأحدثه في الغد إن أمكن، إلى اللقاء.

ـ توخي الحذر، إلى اللقاء.

وضع السماعة وقد أحس بأن على عاتقه أحمالاً كثيرة، أعباء لا تُحصى، كان إحساسٌ بالثقل يلازمه، لا يعي كيف ومتى نشأ، لكنه متيقن من استمرار نموه، وحده من تسبب في كل هذا، وحده يقود السفينة، سفينة الغرق، لكنه قد وقع في تلك الأمور فلا يشعر بالذنب إلى جانب هذا، لم يتردد في باله سوى تلك الكلمات التي قرأها في الورقة ليلة أمس بأن الدنيا شردتنا في صحرائها ولا يعرف أحد طريقاً للعودة!، ولكن كيف يحل هذا الأمر؟، كيف يعلم هو خريطة العودة؟، لماذا يشعر دائماً بأن هذا الحديث يحرك أجزاء قلبه؟!، لِم لا يتخطاه؟!، كان ذلك الأرق يحتضنه ويلهو به ليختلط عليه إحساسه، لا يدرك أي شيء سوى العتمة.

شرع في إعداد قهوته التي تلازمه، هي الوحيدة التي ليس بينه وبينها أي حائل، كلما أتى إليها غاضباً احتوته وخففت آلامه، كلما ارتشف منها وأنقصها كانت تزيده، لم يحدث قط أن ارتطمت به وتجنبته بل كانت دوماً الرفيق، الصديق الرحب الذي يستقبل ما نعانيه دون أيّة مقاومة، يمتص ما نحمله من خذلان وآلام بينما يعطينا من اللذة ما امتلك، ليهون علينا ما أثارنا وأوجعنا، حتى حملها معه إلى مكتبه لتؤازره في عسر ليله، ووضعها أمامه ومن ثم أشعل مصباحه كعادته وأخذ يعبث بالأوراق، يرد على مسألة هذا ويحقق مراد ذاك، فظل عاكفاً على مكتبه حتى أشرقت شمس اليوم الثالث بينما كان يغط في نومه بعد أن أجهده السهر، وبات في مكانه نائماً واضعاً رأسه على مكتبه مستنداً إلى ذراعيه، يعلو رأسه على العديد من الأوراق والحبر المندثر عليها أو قل كان ينام فوق عُقَد ومعضلات العامة، فلطالما كان رأسه قريباً منهم واحتضنهم باله.

٥

باريس ماتريوغيت مطعم "فيرلين" في الرابعة مساءً . .

تدخل امرأة شقراء إلى صالة الطعام مرتدية نظارتها التي تغطي كوكبين تلونا بألوان السماء، وفي يدها أوراق عديدة من جريدة " ميلساندي "، حتى اقتربت من مائدة تجلس عليها امرأة مستغرقة في الكتابة، من أمامها مشروب إلى النصف، واضعة يداً على خدها والأخرى تحمل قلماً يبث حبراً على كتيب صغير تحت يدها.

ـ بيرلا!، آسفة على التأخير، لكنني ذهبت إلى الجريدة أولاً لأرى الطبعة الجديدة ومن ثم أتيت إليك.

ـ مرحباً، لا عليكِ، لم أتناول أي شيء إلى الآن، أتضور جوعاً

ـ وأنا أيضاً، لكن ماذا تفعلين؟، هل هناك مقال آخر في نهاية الأسبوع؟، أظنك لن تستمري في الكتابة ثانيةً

ـ قطعاً لا، لن أكتب مقالاً آخر، لا أريد أن يتكرر ذلك، إنها فقط مذكراتي

ـ امممم، على كل حال هل لنا أن نأكل الآن؟

ضحكت بيرلا وأومأت برأسها:

ـ بالطبع.

ومن ثم طلبا أكلهما واستغرقا في الحديث عن العمل وعن المقال حتى نظرت ليانا إلى بيرلا وأردفت:

ـ وماذا عن رامون؟، هل علم بما حدث؟

ـ أجل، ليتني لم أخبره، لقد غضب بشدة ونهاني عن فعل ذلك مجدداً.

ـ هو على صواب، أنتِ أم ولده، كيف له ألا يخاف عليك؟!

– أجل، أشعر بالتعاسة لِما فعلت، فأنا السبب في نشر المقال وإثارة غضب رامون أيضاً.

ـ لا عليك، سيكون كل شيء على ما يرام.

ظلت محدقة إلى أوراق الجريدة بجانبها:

ـ تعلمين؟، لقد كنت مخطأة بشأن المجيء إلى هنا مع ريكاردو، لم أُنصت لرأي رامون، لكن الآن تيقنت أنه على حق.

تعجبت ليانا متسائلة:

ـ وما المشكلة في ذلك؟، ما هو الخطأ في أن تأتي معه؟

ـ ريكاردو لا يحمل معروفاً لرامون، دوماً كان رامون متقدماً عليه ويفوقه في كتاباته، لذلك تولدت بداخله بعض المشاعر السيئة تجاه رامون، وذلك يُذهِب راحتي.

ـ اممم، دعكِ من كل هذا، ستكون البعثة على ما يرام، وحتماً بعد أن ينقضي الأسبوعان الآخران، ستعودين إليهم لتستمتعوا بوقتكم.

ـ أجل سيحدث، شكراً لكِ ليانا، لولاكِ هنا معي وإلى جانبي لم أكن أتوقع أنني سأتأقلم مع تلك الظروف.

ـ كُفّي عن قول هذا رجاءً، نحن صديقان منذ زمن بعيد، لا عليك.

*****

حي ريكلاندو منزل رامون السابعة مساءً . .

يفتح عينيه واحدة تلو الأخرى في بطء شديد محركاً رأسه يميناً وشمالاً في خمول وكسل، ملوحاً بيديه جانباً إلى جسده حتى استدقت عيناه ليرى ما حوله فيجد نفسه مستلقياً على فراشه ومن فوقه غطاؤه، متعجباً للحظة حتى علا صوته صائحاً:

ـ جوليانو؟

قالها مرتين فأجابه صوت قادم من بعيد:

ـ أجل، أبي

حتى جاء أمامه وأتبع:

ـ صباح الخير أبي ولو أننا في المساء الآن، أتى آرون ليأخذ الصندوق ووجدناك غارقاً في نومك مستلقياً على مكتبك، فحملناك إلى الفراش وأوصاني آرون أن أبلغك أنه سيفعل ما قلته وسيأتي في تمام العاشرة.

أخذ نفساً عميقاً ثم قال في هدوء:

ـ اممم حسناً، أحسنتم صنعاً، فلم أحظَ بنوم عميق منذ زمن بعيد.

ثما تبادلا الضحك سوياً وانضم جوليانو إلى جانبه:

ـ ألم تهاتفك أمي بعد؟، أريد أن أحدثها.

أجابه بعد أن ضمه إلى ذراعيه:

ـ عزيزي لا تقلق، سوف تعاود أمك الاتصال بنا اليوم أو في الغد، هي الأخرى تفتقدك، وبالفعل أرادت أن تحدثك بالأمس لكنك كنت نائماً.

هز رأسه في صمت دون أن يلفظ بشيء ثم قام من جانبه وأردف:

ـ هيا بنا، لقد أعددت شطيرتين.

ضحك أبوه عالياً:

ـ عزيزي، أنت فتى جيد، ستغار منك بيرلا فيما بعد إذن.

تبسم في ثقة:

ـ بالطبع، أبي.

ـ حسناً، اذهب يا فتى، سألقي نظرة على بعض الأوراق ثم آتي لتناول شطيرتك الشهية.

واتجه من بعدها إلى مكتبه ليرى إذا كان آرون قد نسي شيئاً، وبالفعل تفقد كل شيء وظلت عيناه مصوبة نحو ذلك الظرف الأسود متأملاً للحظات، يا تُرى كيف ستكون نهاية هذا الهراء؟، قبع في مكانه لدقائق، تستوقفه الذكريات، يفكر في بيرلا، استرجع بذاكرته ما قالته بالأمس بشأن التهديد، تتردد في باله تلك الكلمات التي تثقل همه، ذلك العبء الذي

تحملته زوجته من بعده ولا شأن لها فيه، وبينما كانت تبحر به أفكاره بين أمواجها العابرة علا صوت جوليانو:

-أبي، هيا أبي.

أجابه بصوت مرتفع:

ـ قادم.

ثم نزل إلى الأسفل ليجالس صغيره، يداعبه ويأكل من ذلك الفطور الذي أعده له، وظلا يتحدثان وتعلو أصوات ضحكاتهما، كان رامون جديراً في معاملة طفله، ولكن فقط في اللحظات التي كانت تجمعهما، كثيرا ما انشغل عنهم رامون في عمله، سواء في الجريدة أو في أيام الصناديق، فقلما يجتمعون سوياً.

بمرور الوقت وبحلول العاشرة مساءً علت أصوات قرع الباب حتى تقدم جوليانو وفتح الباب ليدخل آرون حاملاً الصندوق الجديد والذي يحمل معه سر الأيام الخوالي، فلم يتفوه بكلمة ولكن الصغير باغته:

ـ بالأعلى.

مشيراً بيديه، وما هي إلا ثوانٍ حتى صعد آرون وبحوزته الصندوق وما يحويه من تعسرات، لتبدأ ليلة جديدة مثل ما قبلها، العجب أن الناس لا يكفون عن بث شكواهم دون اللجوء إلى حلها بأنفسهم، ولكن دعنا نقول أنه ليس كل ما يريدونه هيناً، فمنهم أيضاً من لا يستطيع ولن يستطيع فعلها بمفرده.

نهض من مكانه مستقبلاً آرون وحاملاً عنه الصندوق ليضعه على مكتبه قائلاً:

ـ ماذا بعد؟، أخبرني

التقط آرون أنفاسه رويداً رويداً بعدما أنهكه الصعود:

ـ كما المتوقع، لقد أودعت الصندوق الأول ثم ذهبت لأُحضر صندوق شارع شانتال وانتظرت عن قرب، أشاهد الأجواء وأراقب كل من كانوا يلقون بأوراقهم في الصندوق، وقَدُمَ العديد من الناس ولكن لم يحدث وأن ألقى أحدهم بذلك الظرف الأسود، حتى انقطعت أرجل المارين إلى الصندوق لأكثر من ساعة، وحينما هممت بالرحيل وعزمت على أن أذهب لأغلق الصندوق وأحضره، حدث ما استوقفني للحظات عديدة فانتظرت حتى فرغ من فعله ورحل، شاهدت أحدهم وكان مستوراً، ملابسه طويلة وواسعة إلى الحد الذي يجعلني أرغب في الاقتراب أكثر فأكثر لأتعرف عليه، لكنني تذكرت كلماتك فلم أتقدم نحوه، وحينما استدار وجدتها أنثى!، كانت تضع ذلك الظرف بعد أن تبصرت من حولها، ثم رحلت بسرعة وكأنها تهتم ألا يراها أحد.

كان يستمع إلى ما يقوله في تركيز تام، ما حكاه آرون كان مثيراً للعجب، كيف بعد كل هذا الحديث تكون أنثى هي من تبعث بالجواب؟!، ما هذا الهراء بحق السماء؟!، كيف لأحد أن يعبث معي بهذه الطريقة الساذجة؟!، ظل يحدث نفسه هكذا إلى أن تساءل:

ـ هل تقفيت أثرها أم لا؟

ـ بالطبع سيدي، سرت وراءها في خفية وتسللت بالقرب من منزلها، فوجدتها تسكن في بيت فخم بمنتصف المدينة بالقرب من مقهى دي فلور.

أسرع رامون بالتقاط معطفه قائلاً:

ـ هيا أخرِج الظرف من الصندوق واسبقني إلى العربة، سنذهب إلى حيث قلت الآن.

تعجب آرون من ذلك القرار السريع:

ـ ألن نقرأ ما كُتب في الجواب قبل أن نذهب!؟

ـ بالطبع سنقرأه أمامها هناك.

ذهب إلى غرفته ليلتقط قبعته ويكمل ارتداء ملابسه حتى يلحق بآرون.

٦

في وسط ذلك الهدوء والظلام الحالك الذي يعم الأجواء قرب دي فلور وصلا حيث وصف آرون إلى منزل من طابقين، تتقدمه أشجار كثيرة ونوافذه من الزجاج، حتى رأى رامون بعينه غرفة بالطابق العلوي مضيئة، على ما يبدو أن أحدهم ما زال مستيقظاً، تقدم نحو باب المنزل حاملاً الظرف في معطفه حتى دنا من الباب ورفع يده ليقرع الجرس ولكن لم ترتطم به يداه، فقد فاجأه أحدهم يناديه على الفور في دهشة إلى جانبه، التفت فرأى رجلاً يرتدي سترة ومن فوقها معطف طويل، لا يظهر من وجهه سوى بعض الشعر الأبيض المموج من لحيته، وعيناه شديدتا السواد، يشع منهما انعكاس ضوء المصباح والذي يوحي بكبر سنه، فعلى ما يبدو أنه تجاوز الخمسين، مع بدانته التي تناسبت كثيراً مع وسامة وجهه، فلا تتبين ملامحه بوضوح إلا إذا اقتربت منه لقلة الإنارة حتى دنا فقال رامون:

ـ طاب مساؤك أيها الطبيب فيلاسكو.

وقف ذلك الرجل أمام رامون ومد يده ليصافحه:

ـ طاب مساؤك، كيف الأحوال؟، وكيف جوليانو وبيرلا؟

ـ بخير، وماذا عنك أيضاً سيدي؟

ـ على ما يرام، انظر، أنا أعلم جيداً ما الذي جاء بك إلى هنا وكنت سآتي إليك، لكنني فضلت أن تعرف الأمور بنفسك.

على الفور أردف رامون متعجباً:

ـ عذراً سيد فيلاسكو، أنا لا أفهم أي شيء!

ـ أنا أحدثك بخصوص تلك الرسائل التي وصلتك للتو، يجب أن نتحدث بشأنها أولاً قبل أن تكون بالدخل، هناك بعض الأشياء يجب أن تطلع عليها.

نظر رامون حوله واستدار برأسه ثانيةً:

ـ ماذا تقول؟!، فأنا حتى الآن لا أعرف ما الذي يدور حوله حديثنا!، وأيضاً ما تعنيه تلك الرسائل!

تنهد عالياً ثم قال:

- سيد رامون، هناك قصة كبيرة عليك أولاً الاطلاع عليها كاملة حتى تتمكن من مساعدة من كتب إليك تلك الرسائل، سامحني، فليس من المرغوب أن تدخل الآن، أنا مُقدّر مجيئك.

ـ امممم، وكيف لي أن أصل إلى تلك القصة؟

ـ سنشرب قهوتنا في الصباح سوياً بمقهى دي فلور، وسأقص عليك ما تريد.

أدار رامون أنظاره ناحية البيت، تتفحصه عيناه ثم أومأ برأسه:

ـ حسناً، في تمام العاشرة.

استدار وصعد إلى العربة مع آرون.

ـ سيد رامون

التفت إليه في اهتمام وتابع:

- لا أحد سواك سيحل ذلك الأمر.

حيّاه رامون ثم أطلق آرون العنان للخيل وانطلقا، تريث الطبيب حتى ابتعدت بهما العربة عن المنزل ثم أخرج من حقيبة صغيرة كان يحملها إبرة وقارورة دواء وضغط على جرس الباب.

أوصل آرون سيده إلى المنزل ثم رحل، وصعد رامون إلى غرفته بالأعلى مسرعاً ولم يقم حتى بتبديل ملابسه، جلس على مكتبه وأشعل مصباحه وأخرج ذلك الظرف الأسود من جيبه ليرى ما كُتب فيه للمرة الثالثة بعدما رجع من أمام المنزل كما ذهب، لم يطرأ لديه أي جديد في ذلك الأمر حتى بعد مقابلة الطبيب، لم يزدَد سوى حيرة وتعجب، ولاحقته بعض التساؤلات التي لم يجد لها أيّة تفسيرات على الإطلاق، لماذا كان الطبيب هناك؟، ولماذا منعه من الدخول؟، كان يفكر في ذلك طيلة الطريق لكنه يأمل أن يكون ذلك خيراً، لعلمه أن الطبيب فيلاسكو كان من أصدقاء أبيه المقربين، شقَّ الظرف وأخرج الورقة وارتدى نظارته ليقرأ:

"الآن وقد مرت الأيام بل الأعوام، وحلَّق رحيلك بعيداً في سماء اللانهاية، لا يتمكن أحد من رؤيتك أو حتى العثور عليك، فلتعلمي أنني

بذلت الكثير والكثير، لكن لم يطرق أحد بابي ليمد لي يده ويساعدني في البحث عنك، فأنا أشد رغبة في ذلك، لكن كما لا تعلمين أنا الراغب العاجز، لا أتمكن حتى من الوقوف على قدميَّ فأشق الطرق باحثاً عنك مجدداً، حبيبتي، لا زلتُ أهواكِ، وأعبر الليل مشتاقاً لرؤياكِ، لكنني لا أبُوح ولا أستريح، فكفاكِ أشواقاً ما بعيني وكفاكِ...

طبيبتي، لا تلوميني على الهوى لكن لومي الهوى الذي أزهر خمائلي وعزني عن الوجود بِحُبك، حلَّق بي في السماء طائراً زاهياً ومتوجاً بحرقتي، فلم أعد أعرف حقيقة الفروق بين الخذلان والألم، لكنني أعيش ما هو أقسى من ذلك، أشعر بهما معا، عزيزتي، أتألم"

أغلق الورقة ووضعها في مخبئها ثانيةً، كان وقع هذا الحديث على قلبه موجعاً، كان يتعمق إلى سراب مشاعره كي يعطيها من الصدمات ما لا يتحمل، فظل صامتاً متأملاً، يسيطر عليه الحزن والهوى، حائراً في أمره، كان على أعتاب الدخول ومعرفة كل ما يدور حول هذه الأوراق التي كُتبت بدماء حارقة من هوى المشاعر والأسى، فكانت أمواج اليأس تلاطمها لتعمها وتُغرقها في بحر من الخذلان والندم، كل ما عليه هو أن ينتظر حتى الصباح كي يريح ذلك الشيء الثائر بداخله، تلك الهواجس التي يخطوها عقله حتى لم يعد يفكر سوى في ذلك الأمر، وانشغل عن باقي الأوراق وأخذ قراراً بأنه لن يتفقد ما تبقى من الصناديق حتى يفرغ من حل تلك المعضلة رغم جهله بأسبابها، إنه حتى لا يعلم من المتحدث،

من يخط بقلمه تلك الكلمات الملتهبة، فقد ذُكِرت على لسان رجل بينما قال آرون أنه شاهد تلك المرأة حيث أودعت الظرف في الصندوق، يا لها من صدفة ساذجة حمقاء تعبث بقلبي وتعبر به إلى شط بحر الهوى متلاعبة، ترك معطفه على كرسي المكتب ووضع نظارته وأيضاً القبعة ثم توجه إلى غرفته ليغير ملابسه ومن ثم يخلد إلى النوم، فلا طاقة عنده للنظر في أي شيء الليلة، كل شيء سيؤجَّل مؤقتاً حتى يتحقق المراد، فهو يظن أن هذه مشكلة أكبر وأكبر مما يبعث به الناس في أوراقهم، فكيف يتألم المرء هكذا دون أن يساعده أحد؟!. كان يشق عليه أن يرى أو يفكر في ذلك الأمر مستحضراً ما وصل إليه الناس من تعثرات كادت تودي بهم، فلا أصعب من أن يحيا قلبك منفطراً عاجزاً عن الفرح، يعوقه الغضب والحزن ويتلون بألوان الخذلان والضياع، كان يرى أن هذا كله أصعب وأمرّ مما يستوقف الناس من أمور مادية أو اجتماعية وغيرها، لسنا إلا بشر مهما تعددت الطبقات وتغيرت الألوان والأجناس والطباع، لطالما يجمعنا أننا نمتلك القلب ذاته الذي يشعر ويحس بما يؤرقه ويعوق راحته، ثم خلد إلى نوم عميق بعد ألف رحلة وألف بعثة من التفكير والقلق.

٧

[illegible]

مقهى دي فلور في العاشرة صباحاً . . .

يقف رامون أمام باب المقهى ثم يفتح ليدخل ويتقدم بالمشي حتى يصل إلى يمين البار حيث يجلس الطبيب فيلاسكو:

ـ صباح الخير أيها الطبيب، لعلها العاشرة صباحاً

– مرحباً رامون، أجل إنها العاشرة، كيف كانت ليلتك؟

ـ مثل التي سبقتها، غامضة

ـ حسناً، سأبرهن لك كل ما يحدث الآن.

ثم أشار للنادل طالباً كوبين من القهوة، والتفت إلى رامون فرآه منكمش الوجه وقال:

ـ حدثني عن قصة هذا الظرف وما يتضمنه.

أخذ فيلاسكو نفساً عميقاً متنهداً:

ـ في مدينة ايفري منذ أكثر من عشرين عاماً من الآن سنة ١٩٤٥ وأثناء الحرب (الحرب العالمية الثانية)، بمجرد إقامة هدنة بيننا وبين الألمانيين واكتشافنا لبعض السيدات الخائنات اللاتي يعملن لصالح الجنود الألمانيين، وبعدما تم القبض عليهن أُمر بحلق رؤوسهن كما تعلم

وعرضها في الشوارع أمام العامة ليكونن عبرة للجميع، في يوم ١٨ حزيران/ يونيو تمكن الحلفاء من تحرير معظم المناطق المحتلة، فخرجت صفوف كثيرة من الجيش بهؤلاء النساء في الشوارع، يعرضوهن أمام أعين العامة، وكان الناس يتزاحمون لرؤيتهن وإهانتهن، ومنهم من يبثق في وجوههن، فكانت الشوارع تمتلئ بالمواطنين وكأنه احتفال مهول، وفجأة حدث غير المتوقع، خرجت أهالي وبيوت تلك النساء ليجعلوا من ذلك العرض ثورة وتمرد على ما يرونه من إهانة بشعة لنسائهم، وازدادت المقاومة بين الأهالي والضباط، وكان من بين هؤلاء الناس في الشوارع امرأة وابنتها التي كانت تبلغ من العمر أربعة أعوام، خرجت لترى وتحتفل مع كل الجموع الحاضرة، وبحدوث ذلك الاشتباك نشبت فوضى عارمة اضطر خلالها الضباط إلى اعتقال العديد من الناس الحاضرة في هذا المشهد، من بينهم المذنب والبريء وغيرهما للسيطرة على الموقف، فكانت هذه المرأة من بين من أُخِذوا هباءً نتيجة ذلك العبث، ومن ثم لم تعلن الحكومة أيّة أنباء عن المعتقلين، وصرحت بأن منهم من قُتل ومنهم من كان يُعرَّض للتعذيب وآخرون تم نفيهم إلى بلاد مجاورة يعملون فيها ويعيشون إلى الأبد، ولن يُسمح لهم بالسفر إلى أي مكان آخر.

وصل النادل ووضع القهوة أمامهما، فالتقط كل منهما فنجانه وارتشف منه ما يزيد حدته واستفاقته، ثم استمر الطبيب في السرد ورامون كله آذان صاغية:

ـ في هذا اليوم كانت تلك المرأة عندي بابنتها كي أقوم بفحص طبي على إحدى قدميها، وتشخيص ما تعاني منه ووضع خطة هينة للعلاج، وبعد حدوث تلك الضجة العارمة همت بالذهاب، وأنا أيضاً فررت من بين تلك الصفوف المتكدسة.

هذه السيدة تدعى سيريا، كانت تحمل طفلتها ألما، وزوجها هو من بعث إليك بتلك الرسائل، يدعى أديليو، فمنذ ذلك اليوم وبعد أن علم أنها فُقدت أثناء عواقب الحرب تمكن الحزن من قلبه وأصيب باكتئاب شديد، وعزم أن يفعل كل ما بوسعه حتى يسترجعها مجدداً، ومن حينها لم يكف عن اللحاق بها حيث استطاع، كانت تجمعهما أواصل حميمية وكان يحبها بحرقة وما زال حقاً.

هز رامون رأسه في أسى واضح، ووجه يبث التعبيرات اليائسة:

ـ كاد أبي أيضاً أن يلقى حتفه خلال تلك الفترة العصيبة، حمداً للرب، مرت عليه بسلام، لكن كما تعلم أنهم قاموا بقتل ونفي وتعذيب المعتقلين، فكيف له أن يظل طوال تلك المدة معتقداً أنها تزال حية؟!

ـ في البداية اعتقد من تلقاء نفسه أنها ماتت، وهذا ما كنا جميعاً نرجحه على الأكثر، ولكنها ذات مرة بعد أن مرَّ على تغيبها أكثر من عشرين يوماً بعثت إليه برسالة كتبتها في ورقة سوداء بحبر أبيض باهت كي لا يهتم بها أحد ويصادرها كما كانوا يفعلون في كل السجون، وأخبرته بأنها لا تزال على قيد الحياة، وأنهم بعد استجوابها سيقومون بنفيها إلى مكان بعيد لتحيا

هناك ما تبقى من عمرها، ذلك ما أحيا فيه الأمل مجدداً وأعاد روحه للحياة بعدما سُكِّرت كل الأبواب في وجهه.

أعاد رامون السؤال متعجباً من هذه القصاصات التي تستهدف عواطفه:

ـ لماذا لم يجدها حتى الآن؟

ـ بالفعل ذهب ورائها معظم البلاد التي نُفي إليها المسجونون لكنه لم يجدها، وفي ذات مرة بلغ الغضب منه أقصاه واشتد حنقه، فكان يلقي اللوم كل اللوم على الضباط لِما فعلوه في تلك الحادثة المريرة، حتى ساقته نفسه إلى أن يذهب إليهم ويتشاجر لعله يظفر بأحدهم ويوسعه ضرباً حد الموت، فتقدم نحو مقر بعض الجنود أثناء حراستهم لإحدى المنشآت السيأسية، وكان يحمل سلاحاً بيده، فتهجم عليهم لأنهم أثاروا غيظه وغضبه، فباغته أحدهم برصاصة في قدمه كي يوقفه عند حده الذي بالفعل كاد أن يتخطاه، ومن بعدها صار جليساً على كرسي متحرك، إلى الآن يعجز عن إيجادها أو حتى السفر إلى أي بلد قد تكون موجودة فيه.

تنهد رامون بعض الشيء وأتبع:

ـ آسف، لكنها أيضاً قصة درامية بعض الشيء، ليس هناك ما يثبت أن تلك المرأة لا تزال حية كي نترك ما وراءنا ونتفرغ للبحث عنها، حتى وإن لم يستطع هو الوصول إليها، لماذا لم تحاول هي على الأقل البحث عنه بعد أن خرجت؟!، فهي كانت تعيش معه في مدينة ايفري، ألستَ متأكداً بأنها ماتت أو تزوجت أحداً غيره؟

تبسم ضاحكاً وارتعشت شفتاه قبل أن ينبث بما يدور في باله، وأردف في كل جدية:

ـ مهلاً، أنت لا تعرف كيف كان الحب بينهما سيد رامون، كما أن أديليو لم يبقَ منتظراً في ايفري، لقد قضى كل تلك السنوات متنقلاً من بلد إلى آخر ليعثر عليها، فحتى إن بعثت هي بأيّة رسالة إلى ايفري فلن تجده، هو بالفعل غادر.

ضحك رامون عالياً وظل يقلب أنظاره في السقف وفي عينيه لا مبالاة حتمية:

ـ تباً!، ما هذا الهراء اللعين؟!، هل تعلم أنني أترك أمور تلك البلدة التي تعيشون فيها أيها الأغنياء معلقة على مكتبي لأجل سماع تلك القصص الدرامية؟!، تعلم؟، إن أعطيناها إلى أحد كتَّاب القصر السينمائي فسيُخرجون منها فيلماً مشوقاً وسيربح صديقك من ورائه أموالاً طائلة.

تغير حال وجه الطبيب غاضباً:

ـ سيد رامون أرجوك، هذا الطلب لا يقل أهمية عما تفعله أنت كل يوم، بل يمكننا القول أنه يفوقهم جدية وأهمية على الإطلاق.

أدار رامون وجهه يميناً ويساراً في غضب وتعجب ملحوظ:

ـ وماذا عن الفتاة؟

أطرق رامون ينتظر حديثاً فريداً من نوعه مثل ما رواه الطبيب:

ـ الطفلة تغيبت في سن صغير جداً وكانت تسمى ألما، ذكرت سيريا في رسالتها أنها فُقِدَتْ أثناء القبض عليها، ولم يستطع أيٌّ منا الوصول إليها حتى الآن.

بسط رامون يديه في اهتمام وسخرية:

ـ وهل لي أنا أن أذهب وأتفحص كل تلك البلاد وأبحث عن المرأة المجهولة التي فُقدت هي وابنتها منذ زمن بعيد؟!، هل هذا سيشفي جروحكم ويفي بالمراد؟!.

ثم انفرجت شفتاه في برود، يعترض على ما رواه الطبيب، إلى أن غضب فيلاسكو ووضع يده على الطاولة من أمامه في تذمر ودهشة:

ـ كان هذا الرجل من أصدقاء أبيك المقربين، كما أنقذه من يد بعض الألمانيين أثناء محاولتهم اغتياله بعدما أسس مكتبه زعماً بأن تصرفاته تخطت الحدود المسموحة عندهم!.

عدل رامون من جلسته قليلاً، ينظر إلى الطبيب بينما كان غاضباً، يقلب بصره يميناً ويساراً ويعتلي جبينه القلق فأردف:

ـ وهل تظنني أحد من السلطة الحاكمة أو من الأعيان، ولدي أعين في كل بلدة كي أصل إلى ما تبتغون؟!.

قاطعه على الفور:

ـ أجل، ولهذا السبب وقع اختياري عليك سيد رامون.

تبسم رامون في سخرية جلية:

- آسف أيها الطبيب، اصنع لي معروفاً، فهذا العمل لا يناسبني على الإطلاق، كما أنني غير متفرغ له.

وقف رامون وهمَّ بالرحيل طالباً الإذن من فيلاسكو فأوقفه:

ـ أرجوك، أنا أطلب منك هذا لتنتشل أسرة كاملة من الخراب والضياع وتعيدهم مجدداً إلى الحياة.

ـ أسرة فُقِدَ أطرافها منذ أكثر من عشرين عاماً!، والآن بعد كل ما طرأ علينا في الآونة الأخيرة تريدني أن أساعد ذلك الرجل المهووس الذي أنفق عمره في الهوى والحمق؟!.

ـ فقط أريدك أن تذهب معي الآن إلى منزله وسيكون هذا آخر ما أطلبه منك، من المحتمل أن يغير ذلك من موقفك.

تنهد رامون بعدما أرهقه إصرار السيد فيلاسكو:

ـ أيها الطبيب، أنت تصعّب عليَّ الأمور، لكني سأذهب معك فقط تكريماً لشخصكم، ولأن أثبت لك سذاجة هذا الرجل، ولن أفعل شيئاً آخر في ذلك الهراء.

لم ينبث فيلاسكو ببنت شفة وهز رأسه بالموافقة بعد أن وضع بعض النقود على الطاولة لأجل المشروب، ثم خرجا سوياً من باب المقهى متجهين نحو المنزل.

٨

ماتريوغيت، جريدة ميلساندي الحادية عشر صباحاً . . .

نزلت من العربة أمام الجريدة مرتدية زيها الرسمي لمداولة عملها ومراجعة ما تم كتابته من مقالات ستُنشر في صباح الغد، تقدمت نحو الباب الرئيسي وتجاوزته، تخطو نحو الطرقة وعلى مدار سيرها تنظر إلى الجميع وتحيي البعض بابتسامة صغيرة على شفتيها.

ـ سيدة ليانا!.

التفتت إلى جانبها حيث استوقفتها إحدى العاملات بقسم التحرير مستمرة في حديثها:

ـ أتمنى لكِ يوماً طيباً، السيد ريكاردو برفقة المدير كاستيلو في انتظارك بالأعلى في غرفة المراجعة، بالتوفيق.

ابتسمت في وجهها مع نظرة سطحية:

ـ أجل سأصعد إليهم، شكراً لكِ.

تقدمت نحو السلم وصعدت حتى بلغت أقصى غرفة في نهاية الطرقة، ثم وقفت فجأة لتلتقط بعض الأوراق التي سقطت منها بغير قصد في عجلة من أمرها، وبينما هي كذلك علت من أمامها أصوات تبادل الحديث الذي تنوع بين الهمس والصياح والضحك، فاقتربت رويداً من الغرفة دون أن

تدخل، ظلت واقفة خلف الباب حين استوقفتها بعض الكلمات الغامضة التي سمعتها إلى أن ارتفع صوت المدير ثانيةً:

ـ في المرة القادمة أنت من يجب عليه تقديم العون لي يا ريكاردو، فقط تفصلنا بضع ساعات عن خبر حتفها، كان ذلك بفضلي ولكن كن حذراً، فإن لاحظ أو اكتشف أحدهم شيئاً فسينتهي أمرنا سوياً يا رفيقي.

استوقفتها أو قل ذعر قلبها لِما سمعته، فهي لا تعرف من ستلقى حتفها، أكان الحديث عليها أم على غيرها؟!، فظلت تنصت بعناية حتى علا صوت قهقهة السيد ريكاردو متمتماً:

ـ لا تقلق أيها الزعيم وتشبث بي، فلن يكون الوقت كافياً لأحد ولا حتى لها لتعرف مَن الذي نشر المقال دونها أو على الأيسر من أرفق اسمها، فهؤلاء الناس لا يعبئون، بمجرد معرفتهم بطباعة المقال وصدوره مجدداً سيقضون عليها لا محالة، ولن يكون الوقت مسعفها للهروب، صدقني لن تتمكن.

رد كاستيلو في اهتمام وتركيز بعدما تعرج جبينه:

ـ أتمنى ذلك أيضاً، لكن أواثقٌ أنت مما قاله لك هذا الرجل؟

ـ لا عليك يا زعيم، إنه صديقي وأعرفه جيداً، وأخبرني أنهم قد هددوها من قبل وحذروها من فعل ذلك مجدداً.

ازدادت سرعة ارتطام ضربات قلبها وفزعت، فكانت الدهشة سيدة الموقف حتى أردف ريكاردو في خوف:

ـ ليس هناك قلق إلا من رامون، فإن علم ذلك...

قاطعه على الفور كاستيلو غاضباً:

ـ ومن أين له أن يعرف؟!، لا أحد يعلم من أرفق اسم بيرلا على المقال سوانا، لا تقلق، سيبدو الأمر مثل حادثة طبيعية كما نرى في الأفلام، وسينشغل رامون بحزنه عليها، وبالطبع ستصبح أنت رئيساً للقسم من بعدها وسأتولى أنا القيادة، لكن لا تنسَ، عليك أن تسدي لي معروفاً في المرة القادمة.

علا صوت قهقهتهما مصحوباً بالشر الذي يغشى أعينهما إلى أن انعدمت مشاعرهما.

فزعت ليانا وأسرعت بالخروج من الطابق لتتوجه إلى صديقتها وتخبرها بما سمعت بعد أن غمرها القلق وارتجفت يداها وتعرق جبينها من شدة الهلع لِما سمعته.

****

باريس الحادية عشر والنصف صباحاً...

وصل رامون برفقة الطبيب إلى المنزل وقرع فيلاسكو جرس البيت وما هي إلا ثوانٍ حتى فُتح الباب، وكانت أعين رامون خير برهان على ما رواه آرون بالأمس بأن هناك امرأة كانت تودع الظرف في الصندوق، فتحت لهما الباب، تنظر في تبسم وهدوء:

ـ تفضلا بالدخول

وأشارت إلى مقعديهما، تقدم الطبيب إلى الداخل مرحباً برامون ومن ثم جلسا في غرفة بها مكتب في أحد جوانبها، تتبعثر عليه الكثير والكثير من الأوراق والأظرف التي تلونت باللون الأسود، هي نفسها التي تُرسل إلى رامون، وأيضاً وقعت عيناه على تلك اللوحة المرسوم عليها امرأة لا يقل عمرها عن خمسة وعشرين عاماً تقديراً.

ظل رامون يحدق في الغرفة من حوله محاولاً استنتاج بعض الأشياء التي قد تهدّأ ثوران عقله وحيرته الدائمة، حتى قال للطبيب:

ـ ماذا إذن؟، لقد جئت معك إلى حيث طلبت، ماذا عليَّ أن أفعل الآن؟! وأين ذهبت تلك المرأة؟!.

نظر إليه فيلاسكو متنهداً، والتعب والإرهاق يشعان من عينيه:

ـ مهلك أيها الكاتب، فنحن لم نأتِ للحديث مع امرأة...

لم يكمل فيلاسكو كلماته حتى دخلت عليهما تلك المرأة، تجّر كرسياً متحركاً أمامها، يجلس عليه رجل عجوز ذو لحية بيضاء كثيفة وأعين زرقاء تتجه نحو البياض من شدة الحزن، كلما نظرت إلى وجهه تستنبط الألم الذي ينبعث من بين تلك الخملات والتجاعيد الضامرة في وجهه البائس، ولكن رغم مشيبه تزينه اللحية الكثيفة والأعين الزرقاء الفرنسية، كان في مقعده هامداً، لا يحرك سوى عينيه متقدماً بكرسيه إليهما.

نظر له فيلاسكو في اهتمام:

ـ حدثني كيف الحال إلى الآن يا صديقي؟ أفضل؟

صوب العجوز أعينه نحو رامون، تلتقطه يميناً ويساراً من الأعلى للأسفل مطلقاً:

ـ بقليل

ـ أقدّم إليك رامون راميز

والتفت إلى رامون قائلاً:

ـ هذا هو السيد أديليو.

رحب رامون به ثم بادله أديليو:

ـ رامون راميز!.

وابتسم ابتسامة خفيفة بلهاء من وراء ذلك السقم الذي يعتريه مكملاً:

ـ لقد مضى سبعة وعشرون عاماً منذ أن رأيتك، راميز كان صديقي، ودوماً ما ذهبنا إلى الصيد معاً والسفر كذلك، كان وفياً جداً وكنت أحبه، لكنه رحل مثل كل من رحلوا، فالطيبون يذهبون سريعاً، حقاً لقد كانت رحلته عظيمة.

ثم أطرق إلى خاتم بإصبعه وفي عينيه آلاف الآلام التي لا توصف بأي كلام، ولا يسعها أي تعبير مستكملاً حديثه:

ـ وهكذا ذهبت زوجتي.

كان رامون ينصت ويستشعر بكل حواسه ولا يعرف ماذا يقول، كل ما يدفعه إليه عقله هو أن ينظر إلى العجوز ويتدبر ما يقصه، فيقوده ذلك الإنهاك والعجز اللذان يبدو عليهما أديليو إلى صرف أنظاره بعيداً والإنصات فقط بمخيلته، كانت نظرات العجوز تتعمق إلى ما بين ثنايا الفؤاد فتطعنه وتستفيقه من سكونه مزيلة قشور جوارحه.

صمت الجميع للحظات ولم يتفوه أحد بكلمة، ينظر رامون والطبيب إلى العجوز في صمت منصتين لِما يرويه، بينما يعلق عينيه على خاتمه، لا يلتفت إليهما إلى أن أخذ يقلبه ويتحسسه بأصابعه مطلقاً:

ـ كانت ليلة مظلمة منذ أن رحلت، لم تشرق بعدها أية شمس إلى الآن، تسببت الحرب في إراقة العديد من الدماء، منهم الأبرياء ومن ليس لديهم حول ولا قوة، لا أعلم إلى الآن الدافع الحقيقي لأي نفس أن تأمر بتمزيق الآخرين إلى أشلاء مفرقةً جمعهم، ومثل غيرها من المعارك يقولون أننا بدأنا في التعافي من آثار الحرب واستعدنا معظم ما نُهب منا!، أاااه لكن لماذا لم أتعافَ مما وضعوني فيه؟!، لِمَ لم أسترد ما سلبوه مني؟، جعلوني فارغاً تماماً، هشاً حد السقوط، وكم تمنيت أن أسقط فأخفف عني من الأعباء ما حُمِّلت، لكن أشلائي تجمعت وأوهبتني جسداً لأبحث من جديد عن بقاياي، فأصبحت أتحدث عمّا هو أبشع من إراقة الدماء وأفظع من تفتيت الأشلاء، عن سلب الروح!.

نظر له رامون بعدما أدرك في عينيه تلك الأمواج من الغضب التي تتعقبها ألوان من التمرد والسخط المتراكم، فقال في ود ومواساة:

ـ ولكننا هنا لنعيد لك روحك من جديد.

مسح العجوز على عينيه ليبدد تلك الدموع المحبوسة بها من شدة الحزن، والتي اعتادت أن تنهمر حتى صارت هي الأخرى بلا طاقة للسيل مجدداً، ثم رفع كاحله إليهما وأتبع:

ـ قضيت من عمري أعواماً متنقلاً بين المدن وضواحيها باحثاً عنهم، كنت أوقف الناس لأنظر إليهم وأدقق في وجوههم، فلا أرى سوى خيبتي ويأسى، الآن أشعر بأن الموت ينظر إليَّ بحسرة، يخجل من احتضاني ويمهلني في كل يوم وقتاً لأعثر عليهم، لكنني أعود إليه حاملاً خيباتي، فيشفق عليَّ مؤجلاً فرصتي لما بعد، حتى الآن لم أتقبل رحيلهم، لا يؤمن قلبي بفراقهم، ما زالوا أمامي، أراهم في كل صباح وأحدثهم، تباً!، لا أملك سوى الحديث؛ فهناك أشياء لا نستطيع وصفها لكنها تنهشنا من الداخل.

٩

منزل رامون الثانية عشر مساءً . .

تحمل منشفة على كتفها وفي يدها بعض الملابس متوجهة نحو المغسلة حتى وضعتهم فيها، ثم ذهبت إلى غرفة الطعام وشرعت في ترتيب بعض الأطباق وغسلها، والتقطت المنشفة فألقت مسحة خفيفة على مائدة الطعام، وبعدها حملت المكنسة لتأخذ بها جولة طفيفة بين طوابق المنزل وغرفه وهي تثرثر بصوتها الهادئ وتغني مترنحة بين الأثاث، وبينما كانت منسجمة مع تنظيفها كانت ضربات جرس الهاتف تعلو وتتخبط في الهواء، تصيح بأن يجيب أحد عليها، لكنها في ذات نفسها تخشى أن تتدخل فيما ليس لها، أو تلتقط الهاتف وتجيب عليه، فتصنعت أنها لا تسمع شيئاً، واستمرت في غنائها وثرثرتها، تحمل هذا وتزيل الأتربة عن ذلك، حتى قُطع هدوء بالها وانسجامها من جديد، فقد تناوبت صيحات الهاتف من جديد على أمل أن يجيبها أحدهم، ولكن هذه المرة تنهدت ثم رددت في صوت ساخر:

- لا عليك عزيزي، فلن أجيب.

ثم استدارت وأمسكت بمساحتها وأخذت تتجول بين متاع المنزل، لكن زاد غيظها هذه المرة حينما رن الهاتف للمرة الثالثة، فلم تتمالك نفسها صائحة:

ـ جوليانوو... جولياانوو، تعالَ لتجيب على الهاتف، جوليانو!؟.

لكنه كان مشغولاً بين ألعابه بخارج المنزل فلم يسمع صوتها رغم صياحها المتكرر، ودون تردد تجاهلت أصوات الهاتف واستمرت في عملها.

******

منزل السير أديليو الثانية عشر مساءً

ـ لا عليك أديليو، فالسيد رامون هنا ينصت إليك ويود سماعك حقاً ليساعدك، أليس كذلك رامون؟

قالها الطبيب في دهاء مُصطنَع لكنه أيضاً قد استنبط رويداً ما يميل إليه رامون، خصوصاً بعدما سمع ما رواه العجوز، فهو يعتقد بشدة بأن هذا سيغيّر من رأي رامون، ويثق أنه لا يقبل رؤية أحدهم يتوجع هكذا دون أن يبسط له يد العون.

نظر رامون في صمت، يقلب عينيه بين الطبيب والعجوز، وفي قرارة نفسه يحدثها خاجلاً أن يسمع هذه القصة ويشعر بذلك الألم الذي عاناه العجوز طيلة أعوام مريرة دون حتى أن يطمئنه بالحديث أو يقدم له بعض

المساعدة التي قد تساهم ولو بجزء ضئيل في لملة جروحه التي طالت منه ما طالت، وسرعان ما رق قلبه فأخذ قراره، فقد سمع من العجوز الكثير والكثير من الحديث الذي يتعمق بداخل المرء ويثير فيه ذلك الجزء الذي يشعر ويتألم، فنظر رامون لأديليو وعلق:

ـ بلى!

فنظرا إليه في دهشة حتى أكمل:

ـ لقد سبق وحدثتك بأني هنا لأعيد إليك روحك من جديد.

اعتلت البسمة وجه الطبيب فيلاسكو ولكن ابتسامة العجوز كانت مليئة باليأس والأسف، فقد عاش أعواماً مديدة على أمل، تباً للأمل!.

اقترب رامون منه وأردف:

ـ لكن يا والدي كيف كانت السيدة سيريا لتستحق منك هذا العناء والحب؟!.

ـ هل لديك من العمر ما يكفي لأحدثك عنها؟

ضحك رامون بعد أن أومأ برأسه فانفرجت شفتا العجوز رويداً وأكمل:

ـ كان لقائي بها صدفة وكذلك فراقنا، فما قبل الصدفتين كنت فارغاً، كنت جسداً بلا روح، وما بعدهما عدت فارغاً بلا روح، أحمل قلباً حزيناً مخدراً بالآلام، لطالما كانت هي محاولتي الأخيرة لتقبل الحياة، فأنا لا أدري كيف لشخص واحد أن يصبح عالمي بأكمله، ولكنني أعرف جيداً أنها

استثنائية، وكيف لا تكون كذلك وهي صافية مثل السماء، بل هي شاسعة أكثر من السماء!، حينما تلتقي بها فإنك تلتقي بها كطفل لأم عجوز أنجبت بعد السبعين، لا يتعلق الأمر بكونها أجمل النساء، ولكن بقدرتها العجيبة على أن تجعلني أؤمن بأنها الأجمل، كان يكفي منها وردة، فكأنها حديقة لا تنتهي في عيني، ومن ثم أصبحت إدماني الذي لا أريد الشفاء منه، وقصتي التي أرويها دائماً ولا أكتب نهايتها.

كان رامون ينصت لما يسمع، وفي باله يحدّث نفسه، "كيف ألمَّ بها عشقاً وأصبح كالمجنون هكذا؟!"، وبرغم أن الحديث كان يستهوي قلبه إلا أنه كان يوجعه في بعض الأحيان، فيتذكر زوجته وكيف انغمسا سوياً في متاعب الحياة وغفلا عما جمعهما، نسيا ذلك العشق الذي ترعرعا فيه معاً، كانت ذكريات الحب تدور في رأسه وتحلق عبر الزمن، تستحضر أياماً كان يسبح فيها قلبه في الفضاء من شدة الفرح، فهو حقاً يفتقد نفسه القديمة، تلك النسخة منه التي كانت تعيش يومها هانئة مطمئنة خالية البال، ثم اقتحم عليه ذلك العمق والهدوء صوت فيلاسكو:

ـ يا صديقي أنت لم تخبر رامون عن صغيرتك!

نظر إليهما أديليو وقد امتلئت عيناه بالدموع المتكدسة التي تستهدف أي سبب للخروج:

ـ بالطبع فقدت النسخة الصغيرة من سيريا، تلك الفتاة التي اعتادت أن تعبث بقلبي وتغرقني بضحكاتها.

ثم مسح بيديه على عينيه متنهداً:

ـ لو تعلمان!، أتمنى في اليوم ألف مرة أن أضمها إلى ذراعي وأحتضنها وأداعبها كما كنت أفعل، لكن متى سيرحل عني ذلك الكابوس الذي عليه أُصبح وأُمسي؟!

ثم أجهش بالبكاء عالياً يصيح:

ـ تباً للحرب، سحقاً لهم، هم من أفقدوني عائلتي!

وارتفع صوت بكائه بطريقة هستيرية، يضرب بيديه على فخذيه ويضعهما على جبينه حتى ذعر لذلك رامون، وعلى الفور انتفض الطبيب وقدُمت المرأة إلى جانبه وصاح فيلاسكو في رامون:

ـ أرجوك اخرج من هنا وانتظرني في المقهى، سآتي إليك.

سارع رامون بالرحيل بينما ينظر إليهم في صمت، يقلب عينيه، لا يعي ما يحدث من حوله، لا يسمع أي شيء، كانت هذه اللحظة ثقيلة على قلبه؛ لا يشعر إلا بالذعر والرهبة، يرجع بقدميه إلى الخلف رويداً مقترباً من الباب، وعيناه مصوبتان على الطبيب وهو يمسك بيد العجوز ويهدئه حتى ارتطم ظهره بالباب، فاستدار وخرج من المنزل ومر نحو الشرفة ليرى ما يحدث، بينما كانت تدفعه قدماه للهروب وهو يرى الطبيب يخرج إبرة من جيبه ويفرغها في ذراع السيد أديليو حتى هدأ واستكان وأغلق عينيه وغرق في النوم.

١٠

مقهى دي فلور الواحرة مساءً . .

يجلس على طاولة وحده شارداً فكره، تائهاً بين تداخلات عواطفه، بائساً، لا يعي ما يدور حوله، تستوقفه الكثير من الأفكار، لا يدري بأيهم يبدأ، يلتقط أنفاسه بسرعة، يحاول جاهداً أن يهدأ من روعه وانتفاضته التي حدثت للتو، كان يعجب مما يرى ويسمع، سيطرت قصة أديليو على قلبه واستحوزت على عقله فانخرط في تفكير عميق، لا يكف عن سؤال نفسه، "كيف يحدث ويقع أحدهم في الحب بهذه الطريقة؟!، يبدو أنه مسحور!، كيف يكون المرء عاجزاً عن الحياة بدون من يحبهم لهذا الحد؟!"، ودوماً كانت إجابته حاضرة، فكان يعلم بأننا نحيا بالحب، نحيا بالقرب، نعيش بين من يبادلوننا الحب في ارتياح وطمأنينة، نحن نتعافى ببقاء من نحبهم، تُشفى جروحنا باهتمامهم المتواصل، نلملم جوارحنا بسماع أصواتهم، فلقد خُلقنا من الحب وسنحيا ونموت عليه، ولكن على رغم تلك المشاعر الغالبة على أمره كان يرجع على أعقابه مكسوراً بائساً، فلقد خضع قلبه لمعرفة الحقيقة، لليقين بأنه لا حياة بدون العائلة، لا رغد دون ظلال حبهم وتناغم تجمعاتهم وعلو أصوات ضحكهم، كان ينوي في قرارة نفسه بأنه

حينما ترجع زوجته فلن يطيح بأية لحظة، لن تحول الدنيا بينه وبينهم، فلن يترك نفسه لعبث الدنيا ولهوها.

ظل جالساً واضعاً يديه على رأسه في مكانه ولم يتحرك، لم يطلب أي شيء، فقط يغرق بين أفكاره وحيرته حتى قدم الطبيب من وراءه ولم يتفوه بأية كلمة، ثم أزاح كرسياً وجلس أمام رامون على الطاولة ونظر إليه للحظات، فرآه في ذلك الوضع المذكور، لم يرفع حتى عينيه ليحيي الطبيب.

تنهد فيلاسكو ثم قال:

ـ لذلك طلبت منك ألا تدخل بالأمس.

رفع رامون رأسه في صمت، ينظر للطبيب في أسى ثم هز رأسه دون أن يلفظ كلمة واحدة، فتابع الطبيب كلامه:

ـ لقد عانى كثيراً منذ أن فقدهم، ظل يصارع الدنيا وحده، لكنها انتصرت عليه عدة مرات، وفي كل مرة يخفق فيها لم يُزِده ذلك إلا رغبة في الوصول، قدم حياته قرباناً لأجلهما، فلم يحصل عليهما، أصابه ما أصابه ولم يلتفت ولو مرة إلى نفسه، كان ذلك وحده سبباً كافياً لوقوفي إلى جانبه، لست أقل منك رغبة في الفرار وترك الأمور، ولكني دائماً كنت أحدث نفسي، "ماذا لو كنت أنا من فقد عائلته؟، هل كنت سأجد العون من أحدهم؟"، كان ردي قاطعاً، الآن هو يجلس عجوزاً عاجزاً، أصابته نوبة منذ فقدان قدمه على يد أحد الجنود، فأصبحت أضراره بالغة جسمانياً ونفسياً، حينما يذكّره

أحدهم بأمر عائلته يحدث مثلما رأيت، يتحول إلى شخص آخر، يجهش بالبكاء كالطفل الذي سُلبت منه دميته، حينما أدخل عليه أراه يكتب تلك الأوراق التي وصلك منها ثلاث، ويستغرق في مخاطبتها بقلمه ثم يطويها ويبكي كثيراً، حتى أنه في بعض الأحيان يضطر إلى إعادة الكتابة من جديد بعدما تبللت الورقة من فرط دموعه حتى صار الحبر متداخلاً فيها!، ألا تستحق حالته العناء والمساعدة؟.

ثم نظر إلى رامون وقد امتلأت عيناه بالدموع، لكنه لم يُزِل الستار عنها:

ـ لقد تركت لك زمام الأمور، ولكني بحاجة إليك لمساعدة صديقي.

تنهد رامون بعدما أحس في قرارة نفسه أنه من الواجب مساعدة هؤلاء القوم ليخفف من محنتهم، ولا مفر من ذلك، فالآن بات يُقدّر أحد الهبات التي كان لا يعي ولا يستشعر قيمتها، بات يعرف معنى تلك الكلمة التي غفل عنها لسنوات مديدة، لكنها الآن متغلغلة في أعماقه، أجل إنها العائلة، ثم تبسم للطبيب وأردف:

ـ نحتاج إلى جلسة أخرى معه لرسم خطة للأمر.

تهلل وجه الطبيب وابتهج ماسحاً بعض الدموع التي تسللت من عينيه زاحفة على وجنتيه رغماً عنه وقال:

ـ سنضع كل شيء سوياً، فأنا أعرف تفاصيل القصة بأكملها.

ـ هل لو أن مثل ذلك الأمر حدث مع أبي، أكنت ستفعل ذلك معه أيضاً؟.

ـ لو كنت أنا من في الأمر لفعل أبوك معي أكثر مما كنت سأفعل، فلِمَ لا أفعل ذلك معه؟!، لقد كنا صديقين، وكنت أعتبره بمثابة أخي الأكبر وكذلك أديليو.

هز رامون رأسه مبتهجاً ثم وقف فجأة وأتبع:

ـ ما هذا؟

ـ ماذا؟!

ـ نيفادا تنظف البيت اليوم، ومن المؤكد أنها أعدت غداءً شهياً، يجب أن نأكل أولاً قبل أي شيء.

ضحك فيلاسكو عالياً:

ـ على رِسْلِك!، هيا بنا.

ضحك رامون ونهضا للرحيل، كان رامون يريد أن يخفف عن الطبيب بعض الأهوال؛ فهو يعلم كم المعاناة التي رآها مع أديليو.

١١

منزل رامون الرابعة عصراً . .

يجلس رامون على مكتبه، ومن أمامه الطبيب فيلاسكو يقرأ الرسائل التي أرسلها أديليو مسبقاً، بينما يحتسي قهوته مستغرقاً في التفكير والبحث عن وسيلة يتمكنان بها من العثور على زوجة العجوز وابنتها، ظل شارداً بين أفكاره التي تراوده لبضع ساعات، يجول ويدور هنا وهناك، لكن ما يصعب عليه الأمور أنه لم يتكمن من استلام رسائل العامة بالأمس، وأيضاً لن يستطيع أن يستقبلها الليلة، فكان يشغله أمران، وهما كيف سيضع خطة لإيجاد عائلة أديليو، وأيضاً تفقُّد رسائل وشكاوي العامة، كانت تطارده أفكار كثيرة وآراء ليشارك الطبيب رأيه، بينما كان يستغرق في كتابة ورقة لا يعرف رامون شأنها، فقط كان يعلم بأنه أيضاً يبحث عن وسيلة فعالة للمرحلة القادمة، وقف رامون فجأة ورفع رأسه إلى سقف الغرفة وأغلق عينيه متنهداً طويلاً ثم أردف:

ـ والآن أيها الطبيب، سأعرض عليك ما لديَّ، فلا أستطيع أكثر من ذلك!.

صمت فيلاسكو للحظات ناظراً إلى ورقة في يديه، ثم وضعها وأزال نظارته:

ـ ماذا إذن؟.

ـ منذ أن أُعتقل هؤلاء الناس تم نفيهم إلى سبع مدن مجاورة، وأيضاً أُلزموا بالعمل الشاق في هذه المدن إلا غير القادر منهم، مع منعهم من الانتقال إلى أية مدينة أخرى.

ـ ذلك يعني أن سيريا لا تزال في أي من تلك المدن إلى الآن؟

ـ بالطبع.

ـ لماذا لم ترسل أي شيء لأديليو لتخبره عن مكانها إذن؟

ـ لأنه كما حدثتني أن أديليو لم ينتظر في مدينة ايفري منذ أن نُفيت زوجته، وعزم على الذهاب إلى كل المدن لإيجادها، فمن المحتمل أنها أرسلت إليه مرسالاً لتخبره بمكانها، لكنه بالفعل كان قد غادر فلم يصله أي شيء.

ـ علينا أن نبحث في باقي المدن التي لم يذهب إليها أديليو.

أومأ رامون برأسه:

ـ لا!، من المحتمل أن تكون موجودة حتى في المدن التي ذهب إليها، ليس هناك شيء مؤكد يثبت عدم وجودها، وأيضاً من المحتمل أن يكون أديليو قد أخفق في البحث في هذه المدن، كما أنها كانت تعمل ممرضة مثلما قلت، فمن المحتمل أن تقضي عقوبتها متنقلة بين تلك المدن، لذلك يتعين علينا البحث في هؤلاء السبعة من جديد.

تبسم الطبيب ثم أردف:

ـ أوافقك الرأي، وبما أنك تمتلك خمسة أفرع للجريدة في خمس من هذه المدن، فسيكون من السهل علينا معرفة ما نريد بأقل مجهود.

ـ كيف!؟

ـ لقد أعددت مقالاً الآن بينما أنت تفكر، سيساعدنا ذلك في البحث عنهما.

ضحك رامون لأن الطبيب كان يعلم كل شيء وقد أعد خطته كاملة، لكنه كان ينتظر فقط ما سيضيفه:

ـ ماذا عن باقي المدن؟، وماذا عن الابنة؟.

ـ لا عليك، سأتولى أنا البحث فيهم، ومن الممكن أن أتحدث لأصحاب الصحف لنشر هذا الإعلان، أما عن الابنة فما يسير على أمها يسير عليها أيضاً، لا بأس، المشكلة الكبرى أنها فُقدت في سن صغير جداً.

صمت رامون يفكر فيما قاله فيلاسكو متأملاً، ثم أعاد السؤال مرة أخرى:

ـ ماذا لو أرسلنا أحداً إلى مدينة ايفري؟، ربما نعثر على رسالة منها قد بعثتها مسبقاً إلى أديليو.

ـ لقد غيرت الحروب المدن تماماً وأعادت تشكيل السياسات، فكيف لنا أن نصل إلى رسالة من المحتمل أن يكون قد مر عليها أكثر من عشرين عاماً؟!، بالطبع مستحيل.

جلس رامون على كرسي إلى جانبه واضعاً يديه على رأسه، يصوب أنظاره إلى أسفل غارقاً في التفكير والتعمق إلى التفاصيل، يخشى أن تفوته بعض الأمور التي قد تسهل عليهما الطريق، ثم نظر للطبيب مرة أخرى وقال:

ـ وما الدافع لدى الناس ليرشدونا إليهما؟، كم شخصاً سيهتم ويقرأ؟!.

ـ المال سيفعل.

ـ ماذا سنفعل بالمال؟

ـ سأعرض مكافأة مالية في نهاية الإعلان لمن يدلي بأية معلومات حقيقية عنهما، وكما تعلم سيجن الناس لمساعدتنا والبحث عنهما بل أكثر مما نفعل، وبذلك سيصبح الإعلان محل اهتمام الجميع.

ضحك رامون قائلاً:

ـ سيعمل ذلك أكثر من أي شيء آخر، لكن قد نُفيَ إلى تلك البلاد آلاف الأشخاص في نفس الوقت، نحن بحاجة إلى دافع آخر أو علامة مميزة يتمكن بها الناس من التتبع الدقيق.

هز الطبيب رأسه بالموافقة صامتاً لأنه في هذه المرة لم يفكر بتلك المسألة ولم تخطر بباله، فأخذ يقلب في رأسه ما قاله رامون حتى هب مرة واحدة وأضاف:

ـ لقد حدثني أديليو ذات مرة بأنهم كانوا حاضرين في إحدى الاحتفالات بعد انتهاء الحرب، وذكر بأنه أهدى لكل منهما سلسة بها ساعة كتب عليها

"حتى المشيب"، وكان ذلك قبل أن يفقدهما بثلاثة أيام، وأخبرني أنها نالت استحسانهما ولم ينزعاها إلى أن فقدهما.

نظر له رامون في سخرية وأردف:

ـ إن ذكرنا ذلك في الإعلان فمن الممكن أن يحتال علينا أحد ويقوم بصناعة مماثلة لها ليحصل فقط على المال.

لكن في هذه المرة رغم بُعد نظر رامون إلا أن الطبيب كان يحتفظ ببعض التفاصيل معلقاً:

ـ لن يتمكن أحد من خداعنا، لأن تلك الساعة نُقش عليها اليوم الذي اشتراها فيه أديليو، ولا يعلمه أحد سوانا ولن نقوم بذكره.

تمتم رامون مبدياً إعجابه بتلك الخطة المحكمة التي عرضها فيلاسكو، ثم التقط الورقة وأخذ يقرأ فيها ويعيد فحصها مرات عديدة، يفكر كثيراً فيما تمت كتابته للوصول إلى أفضل نهاية على الإطلاق.

ـ سأتواصل مع أفرع الجريدة وأبلغهم بشأن هذا الإعلان ليقوموا بعرضه صباح الغد، وأيضاً سأتحدث مع بيرلا عند اتصالها أن تقوم هي الأخرى بنشره في فرع الجريدة بمدينة ماتريوغيت.

توهج وجه الطبيب مستبشراً خيراً، لعله يصلح ذلك البؤس الذي عانى منه إلى جانب صديقه، ثم نهض ليرحل قائلاً:

ـ وسأذهب في الغد إلى مدينتيّ بامبرنة وسيرجي بونتواز للبحث بنفسي أو لنشر الإعلان.

ثم التقط قبعته ومعطفه وأردف:

ـ رامون، لن يكون امتناني وشكري كافيين لما تفعله، أنت كنز هذه البلدة ومنقذها.

ـ لا عليك سيد فيلاسكو، ذلك ما أفعله دوماً واعتدت عليه.

التفت مرة ثانية إلى رامون:

ـ شكراً أيضاً على الطعام، كان شهياً حقاً، لكن المرة القادمة سنتناوله جميعاً في منزل أديليو بين أسرته.

ابتسم له رامون:

ـ سيحدث ذلك عما قريب.

غادر فيلاسكو بينما ظل رامون جالساً في مكانه صامتاً يفكر، لا يعي كيف انخرط في هذه المهمة بتلك السرعة، وهل سيقدر على المواجهة، هل حقاً لا يزالان حيَّين؟، من المحتمل أن يعثر عليهما، كان فكره مشرداً وتائهاً بين رحاب هذه الأفكار متسائلاً، "لماذا لم يراودني أي اتصال من بيرلا اليوم؟!"، فهو بحاجة إلى أن يطمئن عليها، حقاً يفتقدها، لقد تغير قلبه بنسبة كبيرة في الأيام الخوالي وعاد أدراجه متذكراً ما قاله فيلاسكو عن

العجوز، الأحاديث العميقة التي توحي بالكثير والكثير، لا زال أديليو يبحث عن حبه الأول والأخير، لم يشغله شيء سواه حتى المشيب.

١٢

منزل رامون التاسعة صباحاً

يعلو صوت جرس الباب متكرراً لعدة مرات بينما يفتح عينيه ببطء شديد ليرى بساطاً من شعاع الشمس الذي تسلل بين نافذة الغرفة ليعلن انتهاء الظلام وابتداء يوم جديد، فعدل عن نومته وجلس على الفراش مستمعاً إلى صوت أحدهم، على ما يبدو قد فُتح له الباب من قِبَل جوليانو، ارتدى ثيابه وخرج من غرفته قاصداً الطابق الأرضي.

ـ نيفادا!، كيف حالك؟

ـ بخير سيد رامون، أتمنى لك ذلك، أعتذر عن المغادرة مبكراً بالأمس، ولكنني اضطررت إلى الذهاب لملاقاة زوجي، فقد كان عائداً من سفره.

هز رأسه في تبسم وهدوء قائلاً:

- لا بأس، كان الطعام جيداً ونال إعجاب السيد فيلاسكو، شكراً لكِ.

ابتسمت نيفادا وأردفت:

ـ لا عليك، على كل حال كنت قادمة لإخبارك بأن الهاتف قد رن كثيراً بالأمس ولم أتمكن من إجابته، كنت هنا بالأسفل.

ـ اممم، لا بأس، لا بد أنها بيرلا، ستعاود الاتصال ثانيةً في أي وقت.

انتفض جوليانو:

ـ أمي!، لماذا لم تناديني لأجيب عليها؟!.

ـ آسفة، ولكنني قمت بذلك بينما كنتَ مشغولاً بألعابك بالخارج.

صمت حزيناً وانصرف إلى أعلى دون أن يلفظ أي شيء.

ـ موعدنا الأربعاء القادم يا نيفادا، شكراً لكِ.

هزت رأسها محيية السيد رامون وفتحت الباب من خلفها لتخرج، وعلى بعد خطوات منه تفاجأت بآرون يريد الدخول، فحيّته ثم استمرت في طريقها، دخل آرون وقال:

ـ صباح الخير سيد رامون، أتمنى لك نوماً طيباً.

أشار إليه رامون في سرور:

ـ تعالَ.

ثم صعدا إلى أعلى، وارتدى رامون نظارته:

ـ إذن، ما هي الأخبار اليوم؟

ـ بعض الناس غاضبون لعدم الرد على مشاكلهم، كانوا منزعجين وقلقين بينما ينتظرون ذلك قريباً.

ـ أعلم أعلم، مجرد أيام وسنعاود مباشرة أعمالنا من جديد، فقط ننهي ذلك الأمر، هل أبلغتهم بتأجيل موعد الصناديق للأسبوع القادم؟

ـ أجل، لقد خفف ذلك من عليهم قليلاً، كانوا يعتقدون أننا سنتوقف عن استقبال تعسراتهم.

ـ هممم، أتمنى أن نفرغ من ذلك قريباً، ماذا عن جريدة اليوم؟

أخرج آرون صحيفة مطوية من معطفه ووضعها أمام رامون:

ـ كل شيء على ما يرام سيدي، فلا يتحدث الناس إلا عن المرأة وابنتها.

التقط رامون الجريدة يقرأها ليرى الإعلان الذي اتفقا عليه ليكون محور حديث المدن بأسرها بدءاً من اليوم، حتى وقعت عيناه على آخر ما كُتب في نص الإعلان منتهياً بحتى المشيب.

ـ ها نحن إذن، أتمنى أن تسير الأمور كما خُطط لها.

لم يفرغ من كلماته حتى ارتعش جرس الباب مرة أخرى، توجه إليه آرون وفتحه فوجد الطبيب فيلاسكو، رحب به آرون ورافقه إلى أعلى حيث رامون، دخل فيلاسكو مسروراً مبتهجاً، ترقص عيناه من شدة الفرح:

ـ طابت نومتك رامون، هل رأيت أخبار اليوم؟

ضحك رامون عالياً وأشار إلى الجريدة من أمامه:

ـ كيف لا أراها وأنا من نشرها؟!.

ضحكوا جميعاً ثم قاطعهم آرون:

ـ سأعد لكما القهوة يا سادة.

فأوقفه الطبيب:

ـ لا داعٍ، أحضرها للسيد رامون، أما أنا فقد جئت فقط لأودعكم قبل سفري، سأتوجه إلى سيرجي بونتواز.

تعجب رامون من حماسته الزائدة والمندفعة:

ـ مهلاً أيها الطبيب، دعنا نرى نتيجة اليوم أولاً.

ـ لو رأيت كم السعادة التي غمرت وجه أديليو حينما قرأ ذلك الخبر، وكيف تمكن الفرح من قلبه لاخترت أن تكون طائراً يجوب السماء بكل مدينة باحثاً عنهما.

ضحك الحضور جميعاً مبتهجين بما فعلوه فقال آرون:

ـ دامت عليكما السعادة يا سادة.

ـ على الرحب والسعة، افعل ما شئت أيها الطبيب، كلنا نسعى إلى راحته وإعادة البسمة إلى وجهه.

كانت لحظة عابرة من السعادة والرضا مرت عليهم جميعاً، وجوههم مبتهجة سعيدة، تتغنى من شدة الفرح، فكيف سيكون الحال إذا رجعت سيريا وابنتها؟!، كيف سيكون اللقاء بعد شوق ملتهب؟!.

همَّ فيلاسكو بالرحيل وودع رامون وآرون وسط تلك السعادة التي تعتريهم جميعاً، وطلب آرون الذهاب أيضاً ليمكث بجانب زوجته لأنها مريضة للغاية وبحاجة لمن يقوم بخدمتها وإسعافها، وبالطبع دون تردد أجابه رامون أن يذهب وأن يبلغها تحياته وأسفه، كانت تلك اللحظة

تستوقف فواصلَ من الزمن، فرامون يفكر في صمت وتدور في رأسه العديد من التساؤلات، كيف يكون ذلك الحب بين الناس؟، هل تسيطر المشاعر حقاً على القلوب للحد الذي يجعلهم كالطير يحلقون هكذا؟!، يرى آرون ويعجب، فها هو يطلب أن يترك العمل حتى يطمئن على زوجته ويبقى إلى جانبها لخدمتها، وكيف يقع أديليو في غرام عائلته رغم مُرّ السنين، لم يتغير منه قيد أنملة وكيف يكون فيلاسكو حريصاً على نجدة صديقه، حائراً من أجل إسعاده!، كان فاصلاً من الوقت يتأمل فيه، وتغرق عيناه في بحر التعمق والتفكير، كانت تأخذه إلى تلك الأعماق مشيرة نحو طريق واحد، لا يسلكه إلا من يعي ويعرف قلبه كيف الوصول، هو الحب الذي يشكل الخيط الوحيد الصلب الذي يتشبث به هؤلاء الناس ليجعلهم في دائرة واحدة، لكن حينما يتعفن قلبك فلن يعي تلك الكلمة، لن يصغي لهذه المشاعر، فقط حينها ستعلم أنك صرت جسداً بلا روح.

لقد كان درساً طويلاً مؤلماً، استغرق الكثير حتى غيَّر كل الأفكار رأساً على عقب، أصبح رامون يعرف كيف تكون العائلة، كيف يكون الابن والزوجة قادرين على إسعاد وإنارة الحياة بأكملها، لكننا بكل أسف نغفل عن ذلك.

ودعهما رامون واتجه كل منهما للأسفل للخروج حتى اقتربا من الباب بخطوات، فدق جرس الباب وارتطمت به يدا الطبيب وفتحه ليرى أمامه

شرطياً عريض القوام مرتدياً بزته العسكرية، يحمل أوراقاً بيديه ثم يرفع قبعته من على رأسه قائلاً:

ـ مرحباً أيها الطبيب.

ـ أهلاً بك، كيف الأحوال سيد هارفي، تفضل بالدخول.

١٣

دخل الشرطي إلى المنزل وصعد معه فيلاسكو وآرون إلى الأعلى، ولم يذهب أحد منهم إلى طريقه، فقد توقعا بأن ذلك الرجل يحمل معلومات عن زوجة العجوز وابنته.

ـ تفضل سيد هارفي.

فتح له آرون باب الغرفة التي يجلس فيها السيد رامون على مكتبه، فقام وحيَّا الشرطي:

ـ مرحباً أيها الرئيس هارفي، تفضل بالجلوس.

جلس الشرطي ويبدو عليه التردد، لا تنطق شفتاه بأي شيء، فدُهش الجميع لذلك، شق الطبيب هذا الصمت:

ـ أهناك أخبار عن زوجة السيد أديليو؟!، لم أتوقع أن الأمر سينتهي بتلك السرعة!.

ثم تبسم فيلاسكو بضحكة تعلو وجهه حتى نظر إليه الشرطي في صمت وأشار إليهم بالجلوس جميعاً وأردف:

ـ أرجو من الجميع الهدوء، فليس هذا ما جئت من أجله.

تغير حالهم واعتلت أدوات الاستفهام جباههم إلى أن أخرج الشرطي ورقة من ملف يحمله في يديه:

ـ بالأمس تلقت شرطة ماتريوغيت بلاغاً من امرأة تدعى ليانا عن جريمة قتل ستحدث في غضون ساعات، وبالطبع ذهب الضباط حيث مسرح الجريمة، لكن على ما يبدو أنهم وصلوا بعد وقوعها، وعثروا على جثة امرأة تم إطلاق النار عليها وهي على مكتبها بالمنزل، سيد رامون يجب أن نتحدث في ذلك بعدما تهدأ، خالص التعازي في زوجتك بيرلا، آسف لك للغاية.

هب آرون والطبيب واقفين يتلفظان بكلام غير مفهوم وينظران في دهشة إلى رامون والشرطي بينما تعلو أصواتهما:

ـ كيف يقع هذا بحق السماء؟!، من فعل ذلك؟!، هل قبضتم عليه؟.

وقف الشرطي وأعطى الأوراق التي بحوزته إلى فيلاسكو:

ـ هذه أوراق الشرطة بالإضافة إلى إذن المقابر، ستصل الجثة إلى هناك في غضون ساعتين.

أخذ الطبيب يقلب في الورق بينما يتحدث هو وآرون إلى الشرطي عن تلك الواقعة اللعينة التي حلَّت عليهم، لكن أين صديقنا رامون؟!..

حينما سمع تلك الكلمات ظل صامتاً قابعاً في مكانه، لن تكون هناك كلمات تصف ذلك الشعور، لم يصدر عنه أي فعل، كان يقلب نظره يميناً وشمالاً، لا يعي ما يحدث حوله، لم يسمع ما أكمله الحاضرون، فقط وصله ذلك الخبر، خبر موت زوجته، كانت الصدمة هي السائدة، لم ينهض من مكانه لكنه ظل هكذا، يرتعش جسده من شدة الفزع، عيناه تجمدان

الدموع وتمنعانها من التسلل، يعجز فمه عن نطق أية كلمة، لا يستشعر أي شيء، غارقاً في سكون حوله، ترفض أذناه أن تنصت لأي شيء، فقط يسمع صوت ضربات قلبه التي صاحت بعشوائية وسرعة.

استمر في ذلك كأنه في حلم يعجز عن الاستيقاظ منه، فقط يحدّث نفسه مندهشاً، "لن تكون الدنيا قأسية بهذه القوة، لن ينفطر قلبي لهذا الحد، لن تغيب بيرلا عني، هي لم تمت، لن يحدث هذا الهراء اللعين"، حتى أغرقت عيناه في البكاء وانهمرت دموعه على وجهه وصاح بأعلى صوته، تخرج منه صرخات لا تتحملها إن كنت أمامه، واضعاً يديه على رأسه بينما يطلق لسانه كلاماً غير مفهوم من شدة ما يلقاه، يمر الوقت ببطء شديد بينما يتوجع ويتألم، ولا زال لا يصدق ما سمعه، كان تردد ذلك الخبر بداخله أشبه بالسهام في ذروة المعركة، يتلقى واحداً تلو الآخر، لا يعي من أين أتت الضربة لكنه متيقن من شدتها، ينتظر الموت لعله ينجيه من الألم.

*****

مقابر ريكلاندو في تمام الثانية مساءً . .

يتقدم جوليانو نحو قبرها ويضع عليه وردة، ثم يتراجع ليمر أبوه من بعده ويجلس على ركبتيه أمام قبرها، يضع وردة ثم يبقى صامتاً، ينظر إلى مرقدها أمامه ويتأمل، تسيل من عينيه دموع كثيرة تائهة، تُشعره بالخزي والندم، تتهافت وتتزاحم على وجهه شاحب اللون، يفكر ملياً ويتذكر أجمل ما حدث بينهما، يسترجع تلك الضحكات التي كانت تطلقها لتروي

بها ظمأ قلبه المنكسر، يرجع إلى بعض الأوقات الممتعة التي قضاها معها، تحيطه أصواتها التي تتردد في أذنيه، بينما يقف بائساً حزيناً من وراءه حشد من الناس تجمعوا لمواساته، على رأسهم الطبيب وآرون والشرطي يقفون خلفه بينما تقام طقوس العزاء.

تقدم فيلاسكو نحوه ثم وضع يده على كتفه وأخذ بيديه للنهوض، كانت لحظات من الضياع تسيطر عليه، فكان الناس يمرون من أمامه لمواساته وتقديم عزائهم له، لكن رغم التقائه بالكثير منهم فقد كان لا يعي مَن يصافح، لا يدرك تماماً ما يحدث حوله، كل ما يشغل حواسه هو ذلك الفقد اللعين الذي انتشل منه أعز ما يملك.

*****

منزل رامون. . .

يجلس رامون على كرسيه واضعاً يديه على رأسه لأسفل، لا يكلم أحداً، لا ينصت لأحد، يجلس في مقابله فيلاسكو والشرطي.

ـ رامون، علينا التحدث قليلاً.

أشار له رامون بعينيه دون أن يلفظ شيئاً فأردف الشرطي:

ـ لقد تواصلت مع الشرطة بهاتريوغيت، وعلمت أنهم وجدوها على مكتبها وقد تلقت رصاصة واحدة من الخلف فخرَّت ساقطة برأسها على المكتب، وكان أمامها جريدة مفتوحة على مقال نشرته في نفس اليوم،

وأخبرتهم صديقتها ليانا بأن بيرلا قد تلقت تهديداً مسبقاً بالقتل إن نشرت مقالاً مثل ما فعلت، هل لديك أية معلومات عن ذلك الأمر كي نصل لأي شيء ينفعنا في قضيتها؟.

١٤

تنهد رامون ثم رفع رأسه ونظر للحاضرين قائلاً في أسى وفزع شديدين:

ـ لقد حدثتني بيرلا قبل يومين بأنها نشرت مقالاً لم يمر على صدوره ساعات حتى تلقت رسالة من أحدهم مهدداً إياها بالقتل إن فعلت ذلك مجدداً، وقد حذرتها من ذلك ونهيتها عن فعله، لكني لا أعلم كيف تجرأت وفعلت ذلك مرة أخرى!.

ثم صرف نظره إلى تلك الصورة على يمينه والتي تجمعه بها وبابنهما جوليانو، فأعاد السيد هارفي:

ـ وما مضمون ذلك المقال حتى يجلب لصاحبه ذلك التهديد!؟

ارتشف رامون كوباً من الماء أمامه بعد أن أرفقه بجرعة من المهدئ الخاص به مستمراً في حديثه:

ـ نحن هنا في باريس نطبق نظام الصناديق مرة كل عام من أجل تحقيق المساواة في توزيع الثروات بين الناس، حينما ذهبت بيرلا إلى ماتريوغيت وجدت الناس في هباء وعشوائية مطلقة، ينفرد أصحاب الثروات بما لديهم ولا يكتفون بذلك، بل يحصّلون المزيد من الأموال من جيوب العديد من المعدمين، فأرادت بيرلا أن تسلط الضوء على ذلك تمهيداً لإنشاء نظام جديد مثلما نفعل هنا، فكان ذلك هو جزاؤها!.

أخرج الشرطي زفيراً عالياً وأتبع:

ـ هوّن عليك رامون، سأتولى ذلك الأمر بنفسي ولن أتركه حتى نعرف من ارتكب هذا الفعل الشنيع.

أومأ رامون برأسه في صمت، ثم هب السيد هارفي للرحيل فقال:

ـ أيها الطبيب فيلاسكو، أريد أن أتحدث إليك قليلاً

نظر إليه في تعجب مشيراً إلى الغرفة المجاورة، فنهض الاثنان متجهين نحوها حتى قاطع رامون ذلك:

ـ ليذهب كل منكم إلى عمله رجاءً، أريد أن أبقى بمفردي.

- حسناً، سأراك في الغد، يجب أن تستريح رامون.

ـ كما وعدتك سأبذل جهدي في معرفة من وراء هذه الواقعة اللعينة.

حرك رامون عينيه في أسى بالقبول وانصرف الجميع.

****

وقف الشرطي والسيد فيلاسكو أمام منزل رامون ودار بينهما حديث بدأه الشرطي:

ـ وصلتني رسالة للتو من شرطة" ميديانوش " بأن هناك امرأة كانت سجينة منذ فترة طويلة، تحمل تلك المواصفات التي نشرتموها في صباح اليوم، كانت ترغب بالمجيء، لكن كما تعلم لا يحق لمن تم نفيهم بعد الحرب السفر إلى أية مدينة أخرى إلا في حالات خاصة، فهي الآن

بحوزتهم، لذلك يتعين علينا الذهاب وإخراجها من مبنى التحقيق في المدينة.

اتسعت عين الطبيب في دهشة شديدة:

ـ مهلاً مهلاً، ماذا تُدعى هذه المرأة وأين وجدوها؟!، هل حدث ذلك حقاً؟!

ـ بحسب ما وصل لي فإنها تُدعى سيريا وهي سيدة عجوز، لم يجدوها، هي من ذهبت إليهم بنفسها وأدلت بالكثير عنها بعدما عرفت أين يعيش زوجها.

ابتهج وجه فيلاسكو مرة أخرى، لا يدرك ما قاله الشرطي ثم صاح:

ـ تباً! لا أصدق، هل حدث الأمر برمته؟!، يجب أن أصعد لأخبر رامون.

ـ لا لا، ليس الآن، يستحسن ألا تحدثه في ذلك الأمر اليوم، سيكون الأمر رغم جمال صدفته موجعاً ومحزناً.

ـ اممم، معك حق، كيف أخبره أننا وجدنا زوجة أديليو بينما فقد هو زوجته اليوم!.

ثم عاود الطبيب الحديث مجدداً بحماس شديد:

ـ يجب أن نذهب إليها الآن، كم يستغرق ذلك من الوقت؟

ـ من فضلك تمهل، سأذهب لإحضار بعض الأوراق والتصريحات، سنتقابل غداً في تمام السادسة بمحطة القطار.

صافحه فيلاسكو قائلاً في سعادة تغمر وجهه:

ـ لقد أبديت نفعاً أيها الشرطي، شكراً لك مجدداً، أقدّر لك ذلك.

ـ لا عليك، لكن لا أريد أن تنسيك فرحتك ما حدث لرامون، فهو الآن بحاجة إلينا جميعاً.

صمت فيلاسكو لبضع ثوانٍ بعد أن تبدل حال وجهه مرة أخرى، ثم رد في أسى بالغ:

ـ أجل، سيشق ذلك على رامون، إنه رجل صالح، قد فاجئه ذلك الأمر.

ثم تنهد وأردف:

ـ تعلم؟، لم أحظَ بزوجة وأولاد، لكني مدرك تماماً آلام الفقد، أعلم أنه من الصعب على المرء تقبلها.

ـ لا عليك أيها الطبيب، ألقاكَ في السادسة.

ثم ودع كل منهما الآخر وذهب في طريقه.

١٥

منزل رامون غرفة المكتب

يجلس رامون على مكتبه واضعاً يديه على رأسه، جفت عيناه فلم تعد تذرف دمعاً، شحب لون وجهه وانطفأ، يعجز عن إدراك ما يدور حوله حتى الآن، هائمٌ يطوف في رحلة بين قلبه وعقله، فلأول مرة يتفقان على شيء واحد وهو أن خسارتهما كبيرة، يطلق في مخيلته العديد من الأسئلة التي يشفق على قلبه من تفسيرها وعلى عقله من الرد عليها، كان يعود منكسراً كما ذهب، تستوقفه للحظات أمنيةً أن يفارقه، أن يراه بدونه ويتغلب عليه، وينظر إلى نفسه وقد انتصر مشبعاً كل محاولات يأسه التالفة، "هل حقاً تسببت في موت زوجتي؟!، أم أنها لم تتفهم قراري؟!، لقد حذرتها من ذلك، لكن كيف يصل بها الأمر حد القتل؟!، لقد مررت بالعديد من هذه الأمور ولطالما حاربت بعضها فهُزمت تارة وانتصرت تارة أخرى، لكن في كل مرة كنت أعرف أنه مجرد تهديد يحمل تعنيفاً ليس أكثر، كيف تجرأوا على قتلها؟!، ماذا فعلنا لننال كل ذلك؟!، لقد وهبنا حياتنا لأجل راحة الناس وطمأنينتهم، لِما لم نحظَ ولو مرة بما نريد بينما كنا نسعي للتخفيف عنهم؟!، الآن وضعونا بين أشد النيران ورحلوا، الآن أصبحت أعرف قيمة أن تكون هنيئاً مطمئناً، يحفك أحبابك والمقربون

إليك في سلام من يحيطون بك دائماً، بينما تتجاوز وجودهم وتتخطى ذلك الحيز الذي يشغلونه مصطنعاً أنك تعيش وحدك، لا يعبأ بك أحدهم، لكن حينما يرحلون عنك تعود إليك بصيرتك، لتشعر بوجودهم الذي كان وانتهى، فتذهب إلى ذلك الدفء الذي كانوا يتركونه خلفهم، لكنك لفرط اعتيادك عليه لم تعد تشعر بوجوده، كم هي ملعونة الدنيا حينما تبرهن لنا دروساً نخطها في كتاباتنا، صانعة بها ثقوباً داخلنا نكاد نهلك بها، ثم تأتي في النهاية لتنظر إلينا مُدَّعية أننا نحن من تسببنا فيها، بينما تغدو هي كالمدلل المسكين الذي لم تخطُ قدماه الخطأ قط!، هل كان ما مر عليَّ في هذه الأيام درساً أتعلمه لأشعر بقيمة الأشياء حولي؟!، سحقاً لهذه الطرق!، أين كنتُ حينما اتصلت بيرلا في آخر مرة؟!، كنت مشغولاً!، منغمساً في محاولاتي للتخفيف عن أحدهم!، ويا لأحدهم!، لطالما أصابتني بالجنون هذه الكلمة، أشق الطرق وأبتكر الوسائل لإنقاذهم، بينما أفلت من يدي أحداً على الجهة الأخرى، امرأة قدمت لي الكثير والكثير، انتشلتني من وحدتي وضعفي لأقوى بها وأواجه من جديد وأنتصر في كثير من الأحيان بدعمها، أنجبت لي طفلاً يشبهها، كلما نظرت في عينيه أشعر وكأني أراها، لكن الآن كيف إن سألني عنها؟!، كيف أخبره أن عمل أبيه تسبب في وفاتها؟!، هل سأغدو بتلك السذاجة؟!، ما بال طفل كهذا ينفطر قلبه ويُهشَّم مبكراً في مثل سنه!، حقاً أعجز عن النظر في عينيه".

ظل رامون جالساً في غرفة مكتبه، متدلياً عليه، يغرق بين ضفاف اليأس والندم حتى غط في النوم من فرط الإرهاق وحيداً.

****

في صباح اليوم التالي منزل أديليو. . .

رنَّ جرس الباب معلناً خلفه عن وصول ثلاثة أشخاص، رجلين وامرأة، تقدمت ألدورا وفتحت لهم الباب وأرشدتهم إلى مكان جلوسهم، ولكن فيلاسكو لم يتأنَّ قائلاً:

ـ أين أديليو؟، إنه عيدٌ الآن.

ـ لا يُعقل!، هل ما يخطر ببالي صحيح؟!.

ضحك الطبيب وأجاب ألدورا:

ـ بالطبع صحيح، فقط أبلغيه أني هنا، أريد أن أفاجئه.

تقدمت السيدة العجوز وقاطعت:

ـ مهلاً، دعيني أدخل أنا له، فقط أين هو؟

تبسم الجميع، وأشارت لها ألدورا بالغرفة التي يجلس فيها.

تقدمت تلك السيدة التي ابيضَّ شعرها الكثيف المنهمر على وجهها البارق رغم مشيبه، مُزينٌ بكوكبين من الخضر ليعطياها جمالاً ورونقاً ساطعاً إلى باب الغرفة، ثم فتحته رويداً ونظرت أمامها لترى أديليو جالساً على مكتبه ومن أمامه أقلام كثيرة مشتتة بين قوارير الحبر التي تجاورها أوراق عدة

وأظرف لا حصر لها مرتدياً نظارته، ينخرط في الكتابة على ورقة من أمامه، نظرت إليه في تبسم وانهالت دموعها تجري على ضفاف وجهها البشوش، تتأمل ذلك الرجل الذي غُرم بها وألمَّ بها عشقاً حد اللحظة حتى قضى عمره باحثاً عنها، وها هي الآن تقف أمامه بعد رحلة دامت لأكثر من عشرين عاماً، أعوام من القلق والأمل في لقاء أخير، لقاء احترق لأجله الشوق والتهبَ، فكيف تبدأ معه الحديث؟!، لن يكون الزمان كفيلاً بالحديث عن الغياب ووصف تلك اللحظة، مهما طال وامتد سيقف الوقت عاجزاً عن التعبير والوصف، مكتوف الأيدي والحيلة، كل ما عليه هو التأمل ليرى تلك العلاقة التي تجمعها وتضمها روابط أشد قوة من الحب.

كفكفت سيريا دموعها ومسحت وجهها وتبسمت في هدوء قائلة:

ـ ألا تزال مشغولاً بالكتابة أيها المؤلف؟!.

صمت للحظات، لم يرد ولم يرفع عينيه عن الورقة التي بين يديه حتى أنهى ما كان يكتبه، ثم رفع كاحله في هدوء وأزال نظارته، ومد بصره رويداً إلى أن استدقت عيناه ووقف لسانه، وامتلأت عيناه بالدموع فانسكبت منهمرة على خده، وهمَّ بالوقوف نحوها فلم يقدر، فأجهش بالبكاء قائلاً:

ـ سيريا!

فاندفعت نحوه واحتضنته باكية بين ذراعيه، يعجز القلم عن وصف وتدوين ذلك الشعور ويقف حد الخيال عند تلك اللحظة، فكانت دموع

الفرح لأول مرة منذ زمن بعيد ترفرف على كل خد وتتراقص، تقدم فيلاسكو والشرطي وألدورا إلى الغرفة، كلٌ يبكي لذلك المشهد الذي يراه، لكم السعادة والحب اللذان حضرا، ظل يحتضنها، لم يفلت يده من عليها، يتعلق بها بشدة ولا تقلّ هي عنه فعلاً، لعلها آخر دموع سيذرفانها، كان لقاؤهما مثل فرحة الأم بمولودها حينما تراه لأول مرة، فلقد ولدنا من الحب وسنحيا بالحب وسنموت على الحب، ولكن أي حب مثل هذا؟!، أي تعلق هكذا؟!، ما بناه أديليو وسيريا لا يمكن أبداً أن تمحوه المسافات ولا أن يهدمه الهجر؛ فقد بنياه على أساس من الحب والصدق الخالص اللذين لم ولن يتطرقا إلى التفكك أو التزعزع.

١٦

بعد مرور ثلاثة أيام . . .

منزل رامون الثانية عشر مساءً

تتقدم نحو المنزل بسرعة، تلتفت كثيراً، يبدو عليها التوتر، تخشى أن يراها أحد، حتى وقفت أمام الباب وقرعت، وما هي إلا لحظات حتى فتح آرون الباب فقالت:

ـ منزل السيد رامون؟

ـ نعم سيدتي، من أنتِ؟

ـ ليانا، صديقة مقربة لبيرلا.

أشار إليها آرون بالدخول وأغلق الباب خلفها.

ـ تفضلي بالجلوس، سأخبر السيد رامون على الفور.

ومن ثم جلست على مقعد في الطابق السفلي من المنزل، تتلفت كثيراً، تجول بأنظارها في المنزل إلى أن سمعت صوت آرون يقول:

ـ سيدتي فلتصعدي، هو في انتظارك.

صعدت لمكتب رامون حيث يجلس كعادته، جلست أمامه ثم وضعت صندوقاً صغيراً كانت تحمله معها أمام رامون على المكتب، وأخرجت من

حقيبتها سيجاراً وأشعلته، والتقطت أنفاسها واحداً تلو الآخر، وصوبت عينيها نحو رامون:

ـ في ذلك اليوم كنت أتوجه إلى عملي في الجريدة كي أقوم بتفحص ومراجعة بعض الأعمال التي ستُنشر في صباح اليوم التالي، وبعدما صعدت إلى الطابق الثاني سمعت كلاماً غير مفهوم، كنت أقف أمام مكتب كاستيلو حيث يستضيف السيد ريكاردو، ثرثرا ببعض الكلمات التي أثارت خوفي؛ فقد دبر ريكاردو تلك الحادثة بعناية ودقة بالغة، قبل ذلك بيوم بعد أن رحلت بيرلا من الجريدة، قام بكتابة مقال مماثل للمحتوى الذي نشرته بيرلا مسبقاً، كما أرفق ريكاردو اسمها به وساعده في ذلك السيد كاستيلو، مسكينة بيرلا، ماتت دون حتى أن تعلم بتلك الحيلة!، كان ذلك مفاجئاً لها، وبمجرد صدور ذلك المقال انقلبت الدنيا رأساً على عقب.

تنهدت وغرقت في بكائها بشدة، بينما ينظر لها رامون في عجب وغضب شديدين، لا يقدر عقله على استيعاب الموقف من صعوبته، حتى كفكفت ليانا دموعها وأردفت:

ـ كان سماع ذلك مثل العاصفة، هممت بكل سرعتي ومشيت في ذعر أطوي الأرض طياً، توجهت إلى بيتها لأخبرها بذلك وأحذرها، واستدعاني عقلي أن أخبر الشرطة أيضاً لعلهم يصلون إليها قبلي لينقذوا الموقف قبل فوات الأوان.

تنهدت ثانيةً بينما ترتعش يداها مخرجة سيجاراً آخر، تكفكف دموعها المنهمرة على خدها وتلتقط أنفاسها رويداً:

ـ وحينما كنت على بعد خطوات من المنزل سمعت صوت إطلاق النار، نظرت نحو الشرفة فرأيتها مستلقية على مكتبها بعدما تلقت الرصاصة من الخلف، حينها عجز لساني عن النطق وتصلبت قدماي، لم أدرك ما حدث للحظات، كل ما أتذكره هو صوت ضربات قلبي الثائرة بعدما تخبطت كثيراً بصوت عالٍ مرتبكة، وما هي إلا دقائق حتى وصلت الشرطة وصعدت للمنزل، ولكن قبل مجيئها رأيته بعدما فعل فعلته خارجاً من إحدى شرفات المنزل، يرتدي معطفه الأسود وقبعته الطويلة بنهايتها الحلزونية السوداء، رأيته بعيني لكن لساني عجز عن النطق فلم أتفوه بأية كلمة، كانت الصدمة مروعة للغاية.

ظلت ترتعش وتبكي بحرقة واضعة يديها على وجهها، بينما لم يفعل رامون أي شيء سوى أنه أنصت بعناية ودقة، فرغم أن ما سمعه يتمزق له قلبه إلى أشلاء إلا أن ذلك كان يبرأ بيرلا مما كان يظنه، فلم تكن هي السبب ولا حتى هو، لا بد أنها كانت الأطماع والمكاسب هي من تسببت في تفرقة عائلته وضياع شملها، كانت سبباً في إشعال النيران في صدر رامون وانكسار قلب الصبي وغياب البسمة من على شفتيه، كانت كل شيء في اختفاء امرأة عظيمة تهدف إلى فعل المعروف.

قاطعت صمته:

ـ لقد تمكنت من اختلاس بعض الأشياء الخاصة بها، وأيضاً ورقة كتبتها بيرلا بيديها في ذلك اليوم دون أن يراني أحد.

دون اهتمام لِما قالته قاطعها رامون:

ـ مهلاً، لماذا لم تخبري رجال الشرطة بكل ما شاهدتِه وما سمعتِه من ريكاردو وكاستيلو؟!.

ـ بالفعل شرعت في إبلاغهم بذلك، وبينما كنت أمام الكثير منهم أتحدث، مرَّ أحدهما من خلفي وهمس في أذني:

"لا تتفوهي بشيء، فربما تنقذين نفسك من الموت، فأنتِ لا ترغبين في اللحاق بها، أليس كذلك؟"

حينها علمت أن الأمر مدبَّر بعناية شديدة، وقررت أن أتكتم على كل ما أعرفه لأخبرك به بدلاً من مخاطبتهم.

تنهد رامون ووضع يديه على رأسه ولم ينبث ببنت شفة، لم يسبق له وأن كان مشتتاً هكذا، كيف يتصلب قلباهما لهذا الحد اللعين؟!، إلى أن نهضت ليانا لترحل:

ـ لا عليك رامون، حدث ما حدث، لكنك الآن تعرف الأمر برمته، وقد تيقنت أن بيرلا لم تكن مخطأة قط، انتبه لنفسك ولطفلك الصغير ودع ما فات، لا تدخل في صراع مع هؤلاء القوم لأنه لن يكون لديهم وقت للتفاوض في أي أمر!.

لم يعبأ رامون بما قالته ثانيةً، وظلت أعينه مصوبة نحو ذلك الصندوق إلى أن أصبحت ليانا على بعد خطوات صغيرة من الباب والتفتت إليه:

ـ لقد كانت تعلم خطأها من البداية وندمت على ذهابها لماتريوغيت كثيراً، فقط أنا من نصحتها بأن تنسى وتنتبه إلى العمل، لقد أحبتك حقاً.

نظر لها رامون بأعين مليئة باليأس:

- شكراً لمساعدتك، طابت ليلتك.

ورحلت ليانا.

كان الأمر شاقاً على رامون، فمنذ أيام فقد زوجته فلم يكن ينام من فرط التفكير نحو قتلها وكيفية حدوث ذلك، تستوقفه كل يوم آلاف التوقعات والأفكار، لم يفكر للحظة ماذا سيفعل هو؟!، فقط كانت تشغله بيرلا ليس إلا، لأن طريقة موتها تمزق قلبه إرباً وتضخ فيه الألم، أما الآن فقد بات يعرف حقيقة الأمر كاملاً وكيف دُبّر من البداية، تباً لها!، واقعة في غاية المكر والدهاء، ثم نهض ليرى ما في ذلك الصندوق الذي أحضرته ليانا، فتحه وأخرج ما فيه شيئاً فشيء؛ أولها صورة له ولابنه جوليانو كانت بحوزتها، ثم أخرى تجمع ثلاثتهم، وذلك المقال الذي ماتت بسببه، فوضعهم إلى جانب الصندوق ومد يده مجدداً وأخرج باقي الأشياء، من بينهم سلسلة كانت تحتفظ بها، لم يلتفت إليها كثيراً ووضعها على المكتب حتى أمسك بورقة مطوية قد أخذت مكانها في أحد جوانب الصندوق، التقطها وارتدى نظارته وجلس ليقرأها، كانت بعنوان "مذكرات موت".

******

منزل أديليو...

يجلس أديليو وسيريا وأيضاً الطبيب فيلاسكو، يتحدثون عن رامون وعمَّا فعله للبحث عن سيريا وابنتها وعمَّا بذله في سبيل ذلك، وأيضاً يتحدثون عمَّا حدث له مؤخراً وفقدانه لزوجته إلى أن عقَّب أديليو:

ـ أشعر به، قلبه ينزف الآن مثلما فعلت أنا طوال الأعوام السابقة، حينما يفقد المرء صديقاً له أو أحداً من أقربائه يتألم كثيراً ويحزن فتسيطر عليه الوحدة، ما بالكما إن كانت زوجته هي من فقدها!، ستكون خسارته أكبر، سيحمل أحزاناً ثقيلة، ليعيش بجسده فقط ويقضي حياته بلا روح، كأنها سُلبت منه رغماً عنه، حتى شغفه الذي كان يظله بات الآن مدفوناً في الأعماق.

اقتربت منه سيريا وأمسكت بيديه في هدوء:

ـ لكنني إلى جانبك الآن ولن أتركك مهما حدث، لن يتكرر الأمر مجدداً.

نظر إليها مصوباً عينيه اللتين تحملان الكثير والكثير في عينيها وأردف:

- فرحتي بعودتك لا يضاهيها أي شيء في الكون بأكمله، رجوعك مثل سيل من الأمطار على أرض تتشقق من شدة الظمأ، جئتِ لتُعيدي لها حياتها من جديد، لطالما تمنيتك كثيراً ولن أتمنى بعدك، فلا شيء أكثر منك للتمني.

حينما جاء رامون إلى هنا وأنصت إلى قصتي كنت أرى في عينيه آلام الفقدان والتعطش، كانت عيناه تستنجدان ليجيبهما أحدهم، كنت أرى فيهما ضعفه الذي يستره بين أفعاله وتصرفاته، حينها فقط علمت أنه ضحية من ضحايا الحب، يحب زوجته كثيراً، لكن لم تأتِهِ الفرصة ليعبر لها عن ذلك، والآن هو نادم على فوات الأوان، لقد فقد شيئاً فريداً لن تحنو عليه الدنيا بمثله أبداً، لذلك لن ينفعه الندم لأنه أضاع على نفسه الكثير والكثير، يجلس لسماع هذا وذاك من هنا وهناك بين الناس، يغفل عن إظهار مشاعره لمن يستحقونها إلى أن فقدهم، فأحس أنه فقد كل شيء، لذلك أنا أشعر بخسارته، مسكين!.

صمت الكل وفي أنفسهم يتعجبون لِما رأوه في تلك القصة التي أرهقت قلوبهم أجمعين، حتى أراد الطبيب أن يقلل من حزنهما ويخفف عنهما قائلاً:

ـ لكن من سيدفع لي ثمن الأوراق التي جلبتها لك يا صديقي طوال الأعوام السابقة لتخطَّ فيها حبك الثائر؟!.

نظر إليه أديليو وضحك عالياً وكذلك سيريا، وتبادلا الحديث عن الأيام التي مرت بها سيريا وهي في مدينةميديانوش، وكيف كانت تعمل ممرضة بأحد المستشفيات العسكرية هناك، وعن كم المحاولات التي أرهقتها كي تعود إلى أديليو ثانيةً ولم تُجْدِهَا بأي نفع، فتطرق حديثهما إلى الضحك تارة وإلى البكاء تارة أخرى، كانت حياتهما مزيجاً من الآلام واللهو، إلى أن نهضت سيريا من مكانها فتعجب أديليو متسائلاً:

ـ إلى أين؟!

ـ إليكَ دوماً!

كانت تلك الكلمات تثلج قلب أديليو بعد عمر مضى من النيران الملتهبة في صدره، نيران الشوق وأوجاع الفراق التي ذهبت إلى مرقدها منذ أيام.

١٧

"مذكرات موت"

"رغم اختلاف الأماكن ورغم صعوبة الأمر يعتريني ألف شعور وألف إحساس، لكن الكلمات تعجز عن وصفهم، لقد كنت دائماً وحدي، أبكي وحدي وأفرح وحدي، أنتصر وحدي وأُهزم وحدي، حتى في موتي كنت وحدي. لا يعني هذا تقصيراً منكَ، فأنا أيضاً تسببت في ذلك، لكن بعد مرور الوقت وفوات الأوان أريدك أن تعلم أن السماء كانت تنافس كبر حبي لك، الآن أتذكر لقائي بكَ، وكيف كنت أنجذب إليكَ مرغمة مغرمة، كنت أتمنى لو أنني حيثما أميل بوجهي أراك، حتى جمعتنا الأقدار سوياً، فأنا ممتنة لهذا القدر الذي جمعنا معاً، لقد كنا ضحايا الإهمال، فما بنيناه سوياً كان أصيلاً، لطالما كانت غلطتنا الوحيدة أننا نتجاهل ما يؤذينا حتى تراكم وصار وحشاً يطاردنا، فلا هو رحل بعدما حقق مبتغاه ولا نحن منه تخلصنا، فقط أريدك أن تنتبه لجوليانو، أنت الآن ملاذه الأول ومأواه الآخير، لا أحد سواك سيحنو عليه، فلا تدعه يسلك الطريق الذي سلكته أنت حتى لا يفقد أعز ما لديه، وأخيراً كنت أتمنى أن نبقى معاً، وأن أحبك حتى المشيب..."

-بيرلا-

طوى رامون الورقة كما كانت، ووضع رأسه على مكتبه فوق تلك الأشياء كأنه يحتضنها، فكان حديث بيرلا يتسلل إلى أعماقه، لكنه إلى حد صغير قد أراحه بقدر يساعده على المواجهة من جديد، لا يدري أحد ما يدور في بال رامون، فبعدما أغلق الورقة طوى معها ذكرياتٍ كثيرة وأحداثاً لا حصر لها، يتوقف عن التفكير فيها مؤقتاً، لا يشغل باله إلا أمر واحد وهو كيف سيجعل من هؤلاء القتلة نموذجاً تتحاكى به الأجيال إلى أن ينتهي بنا الأزل ونرحل جميعاً، فقد أخذ قراراً لا يقدر غيره على فعله، وعزم على تنفيذه بنفسه، فلن يستقبل أي عزاء آخر إلا بعد أن يُنهي تلك القصة إلى الأبد، وفي قرارة نفسه يحمسها ويؤهّبها إلى فترة من الإبداع المتقَن، فكيف سيلاعب أعداءه مثلما بادروه وأشعلوا النيران في جحره؟، لقد احتُسبت لهم نقطة لا تُغتفر، كلفته حياة غالية لشخص لن يتكرر، وبينما هو يفكر فيما سيفعله سمع صوت قفل الباب بالأسفل، على ما يبدو أن لديه ضيف قد أدخله جوليانو للمنزل.

ـ طاب مساؤك رامون.

قالها الطبيب فيلاسكو مقتحماً الغرفة عليه، واقترب منه ليصافحه، وقف رامون وتبسم في وجهه وبادله التحية، وكان ذلك يثير عجب الطبيب، لم يتوقع أن رامون بتلك الحال ثم أردف:

ـ أقدم لك من عانينا لأجلهما، تفضل سيد أديليو، تفضلي سيريا.

دخلا الغرفة وصافحهما رامون وحياهما بشكل لائق، وجلسوا جميعا يتحدثون، وبدأت سيريا بشكر رامون على ما فعله، وأبدت أسفها الشديد على موت زوجته بيرلا، وكذلك فعل أديليو، تفرع الحديث بينهم، كلٌ يروي ما لديه من أمور كثيرة إلى أن قال أديليو في أسى بالغ:

ـ أنا أكثر الحاضرين إحساساً بما يعتريك الآن، لكن نصيحتي لك أن تنسى، وتنسى أنك نسيت أيضاً.

نظر له رامون بابتسامة خفيفة ملونة بالندم:

ـ كيف أنسى يا أديليو؟!، رغم صمتي هذا وقلة حيلتي إلا أن هناك حرباً شديدة تدور بداخلي، ونيراناً تحتشد في صدري، فقط أترقب الوقت لإخراجها، لا أحد سيشعر بما يمر به غيره لأننا جميعاً مختلفون، كلٌ لديه طريقته، أما أنا فقد وقعت في فخ من أعمالي.

ظلوا جميعاً يتحدثون، كلهم يسعون بالكلام المعسول إلى أن يهوّنوا على رامون ما حدث، إلى أن طلبت سيريا تلك الصورة من أمام رامون لترى بيرلا وتتعرف على شكلها، ونهض رامون ليلتقطها من على مكتبه، وبينما يفعل أطاح رغماً عنه بتلك السلسة التي تجاور الصندوق فوقعت أمامهم جميعاً، فلم يعبأ بها رامون، فقط أراد أن يعطي الصورة لسيريا، لكنه تعجب حينما ظل معلقاً يديه ليعطيها الصورة بينما هي في حالة من الفزع، تنظر لتلك السلسلة التي تهشمت أجزاؤها، لا تلتفت إلى رامون وهو

يبسط ذراعه لها حتى تمتمت في سرعة كلاماً غير مفهوم، وحملت السلسلة وصوَّبتها ناحية أديليو، ثم قامت بفتح الساعة التي في نهايتها قائلة:

ـ لا يُعقل!، كيف وجدها؟!،

وغرقت عيناها بالدموع.

نظر أديليو لتلك الساعة في دهشة قوية وقال في صوت متقطع مكبوت:

ـ ابنتي!، طفلتي!، أين وجدتها؟!، أين هي؟!

رد رامون بعدما اعتلت وجهه علامات التعجب والحيرة:

- لا أفهم ما تقولونه!، لقد كانت بحوزة زوجتي بيرلا وأعطتني إياها صديقتها ليانا اليوم!.

لم يفرغ رامون من كلماته حتى أجهش أديليو وسيريا بالبكاء والنحيب:

ـ ابنتي!، لقد ماتت يا أديليو!، مسكينة!، كنت أتمنى أن أراها وأحتضنها، ليتني عدت قبل أيام، قبل فوات الأوان.

وكذلك أديليو يتمتم باكياً بكلام غير مفهوم، نهض فيلاسكو والتقط تلك الساعة وفتحها فاتسعت عيناه فجأة لِما رأى، ثم وجَّهها إلى رامون لتمضي عليه لحظة من الدهشة والتعجب حينما قرأ ما كُتب على ظهر تلك الساعة "حتى المشيب"، كانت تلك الكلمات هي ما كُتبت على ساعة سيريا وابنتها بنفس التاريخ، فالآن انتهت تلك القصة التي لم يتوقعوا جميعاً أن تكون نهايتها هكذا، كان كل ما يشغل رامون هو كيف لو كان فعل ذلك

منذ وقت بعيد؟!، كيف لو أحضر لها أبويها اللذين تظن بأنهما توفيا في حادث منذ صغرها، كيف كانت ستبدو فرحتها بذلك؟!.

رفع رامون رأسه وهو يصدر زفيراً عالياً ويقلب عينيه من شدة الصدمة التي حلت عليهم جميعاً وأصابته بالأسى مجدداً.

*****

بعد مرور ثلاثة أيام

يدخل جوليانو غرفة أبيه ليراه يُعدُّ بعض ملابسه وحزمة من الأوراق ويودعها في شنطة السفر، بينما يبدل ملابسه بسرعة فقال:

ـ أبي!، إلى أين سنذهب؟!

تبسم رامون وتقدم إليه ثم جلس على ركبتيه ووضع يديه على كتف جوليانو:

ـ سنذهب في عطلة سريعة يا بني، لديَّ عمل في مدينة مجاورة يجب أن أنهيه في أسرع وقت، أما صغيري فسيذهب معي إلى جده وجدته، فهما بانتظاره ليقيم معهما حتى أعود وأجلب له القط الذي يريده معي.

ـ ألن نرى أمي ثانيةً؟

قالها جوليانو بينما تعتلي وجهه لوحات من اليأس والحزن، فأجابه رامون بعد أن ضمه إليه وعانقه:

ـ بني، لا أحب أن أراك بهذا اليأس، أنت تعلم كم أحبك، وأيضاً بيرلا لن تكون سعيدة إذا رأتك حزيناً، تفاءل جوليانو تفاءل، وامرح عند جديك، أريدك أن تستمتع بوقتك هناك، أعلم أنها أول مرة تراهما فيها، لكنهما سيرحبان بك جداً، وهما أيضاً يحبانك مثلما أحبك.

*****

محطة قطار غار دو نور

يسير رامون ناحية القطار المتوجه لماتريوغيت بينما يلتفت حوله، يبحث عن أحد، وأخرج ساعته ليرى الوقت، فعلم أنه قد تأخر، وألقى بعينيه نظرة سريعة حوله حتى فاجأه صوت أحدهم قادماً من خلفه:

ـ رامون، أتأسف بشدة على التأخير، فقط كنت أتأكد أن أحداً ما لا يراقبني.

ـ لا بأس، هل أحضرت الأوراق؟

ـ أجل، وبها العنوان الذي ستقيم فيه، الجميع ينتظرك كما اتفقنا، لا تدَع أحداً يعثر على مكانها!.

أخذها منه رامون وأردف:

ـ اممم، شكراً لك أيها الضابط هارفي على مساعدتك وعونك، أتمنى أن يجدي ذلك نفعاً.

ـ لا عليك رامون، سألحق بك في أقرب وقت، بمجرد أن أنهي أوراقي هنا، فقط كن حذراً أرجوك.

هز رامون رأسه ثم صافحا بعضهما البعض، وصعد رامون على متن القطار ليبدأ رحلته الجديدة لماتريوغيت.

****

ماتريوغيت، حي أبيلا

يمشي رامون في سرعة ملحوظة بعد أن نزل من العربة نحو منزل في نهاية المسار محاط بالكثير من الأشجار التي تغطي معظم جوانبه، يلتفت خلفه وإلى جانبه كثيراً وبسرعة حتى وقف أمام الباب وقرع الجرس معلناً عن وصوله، وما هي إلا ثوانٍ حتى فُتح الباب وتدلى إلى الداخل ثم تنهد قائلاً:

ـ صباح الخير بيرلا، هل كل شيء على ما يرام؟، أفتقدك كثيراً.

تقدمت نحوه وتبسمت في عينيه ثم عانقته وهمست في أذنه:

ـ أجل بخير، ما دمتَ إلى جانبي.